أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

شعرة معاوية وملك بني أمية

Looloo
www.dvd4arab.com

عرفات القصبى قرون

(١)

مقدمة

لا شك أن معاوية بنى ملكه بذكائه .

ولا مغالطة فى أنه أعدّ نفسه لذلك منذ أمد بعيد .

فأبوه أبو سفيان بن حرب زعيم مكة ظل فترة طويلة يحارب النبى ﷺ من أجل الزعامة ، معتقدًا أن رسول الله ﷺ إنما ادعى النبوة من أجل زعامة العرب وبطريقة تخالف دين آبائه وأجداده من بنى هاشم الذين توارثوا زعامة مكة فى تنافس شديد مع بنى أمية .

تلك الزعامة التى أخذت من بنى أمية وبنى هاشم زمنًا طويلًا قبل الإسلام وردحًا من الزمن فى أثناء النبوة وبعدها . ولسوف نوضح تلك المنافسة فى إيجاز ليكون القارئ على بينة من أكبر حيّين وأكبر قبيلتين فى قريش .

فالصراع على الزعامة لم ينته وإن أخفته القلوب ، من أجل هذا مهّد أبو سفيان لابنه معاوية لما بعد النبوة ، ومهّد لها معاوية وتمكن منها فى عصر الخلفاء .

فمعاوية واصل مسيرة أبيه مهتمًا بكل موروث الأبناء من

الآباء فشخصية معاوية هى المطاف الأخير الذى انتهت عنده نهاية السلالات ، فقد احتجبت لديه خصال بنى أمية فوظفها توظيفًا دقيقًا مع مقتضيات الحياة ، فوفق فى ذلك توفيقًا رشيدًا فبنى دولته وبلغ بها الذروة فى المجد برغم ما حمل على كاهله من تناقضات الماضى الثقيل الذى هيأ به لحاضره واستخدمه لمستقبله البعيد .

فمعاوية هو صرح بنى أمية الذى ينسب الفضل الذى فى أيديهم إليه ، ولتلك الشعرة الدقيقة التى كان يربط بها الناس ولم تنقطع إلا بعد وفاته ، إذ خلف خلفًا أضاع الشعرة من أمام عينيه واستخدم بدلًا منها الجبروت والبطش وملك معاول التهديم والانكسار التى يرفضها التاريخ .

(٢)

« أبو سفيان وبنى أمية »

لا مناص أمامنا ونحن نذكر بنى أمية التى أنجبت معاوية أن نمضى فى ذكر نسبه وحسبه ومكانة قومه من قريش وذلك التطاحن الشديد على الزعامة بينهم وبين بنى هاشم أبناء عمومتهم .

لقد كان ذلك الخلاف الشديد والشهير بين الحيّين الكبيرين ممتدُّ الجذور حتى « قصىّ » جدّهم الكبير الذى أنجب عبد مناف ، وعبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، وعبد الدار الابن الكبير الذى ولاه أبوه شرفًا عظيمًا فأعطاه ما بيده من شرف ، أسبغ عليه ما بيده من الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، وجعل دار الندوة له ، فاستجاب له أبناؤه إذ كان « قصىّ » ممن لا يخالف له أمرًا .

وتمضى الأيام ويهلك قصىّ ، فإذا بنو عبد مناف بن قصىّ ، وهم : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ينفسون على بنى عبد الدار ما بأيديهم من شرف ، فتطاول عليهم العرب إذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم .

تنقسم قريش على نفسها ، تنحاز طائفة إلى بنى عبد مناف

يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانتهم من قومهم ، وطائفة أخرى تنحاز إلى بنى عبد الدار ترى أنه لا ينزع منهم ما أعطاه لهم قصىّ ، وأوشكت السيوف أن تخرج من غمدها إذ أوشك القوم أن يثيروها بينهم حربًا ، ولكنهم تداعوا إلى الصلح بعد أن قسموا بينهم ما أعطى قصىّ لعبد الدار ، فكان لعبد مناف السقاية والرفادة ـ سقاية الحجيج وإطعامهم ـ على أن تبقى الحجابة ـ مفتاح مكة ـ واللواء ـ والندوة ـ الحرب والرأى ـ فى بنى عبد الدار .

تولى هاشم بن عبد مناف دون أخويه عبد شمس والمطلب السقاية والرفادة ، فاز بها هاشم على عبد شمس وهو توأم له فى السنّ والولادة ، وفاز بها على المطلب . لأن المطلب كان أصغر منه .

لما مات هاشم بن عبد مناف ورثها من بعده ابنه شيبة الحمد واسمه عبد المطلب بن هاشم ، وهكذا استأثر بنو هاشم بأمر مكة والحجيج دون عبد شمس .

تلك نبذة قصيرة عن الأجداد ، والذى يعنينا هنا هو هاشم وعبد شمس ، لنوجز فيهما ذلك التنافس على الزعامة فى أمر مكة .

ولد هاشم وعبد شمس فى بطن واحد ولدتهما لعبد مناف زوجه عاتكة موصول عقب أحدهما بالآخر ، فأراد القوم أن يفصلوا بينهما فأشار بعضهم أن يفصلوا بينهما بدرهم حتى

يكون الذى بينهما مال ، وأشار آخرون أن يفصلوا بينهما بالسيف ، فرجح الرأى الآخر فجاء طبيب الحىّ ففصل بينهما بسيفه ، فسال بينهما الدم ..!

وتشاءم الأبوان من ذلك وتطيرا به ، فقد أنذرهما العرّافون والكُهّان بما سوف يكون بين ابنيهما وأعقابهما من دمٍ يراق !

وسعى القدر سعيه ، فشبّ هاشم شهمًا كريمًا ميسورًا تزيد الأيام فى جاهه وعزه وتحط من قدر عبد شمس حتى إذا ما استوى هاشم رجلًا انحاز له نفر غير قليل من قريش وانحاز آخرون إلى عبد شمس ، وانتهى ذلك على أن يستأثر هاشم بالسقاية والرفادة فى شرف عبد مناف ولا يأخذ منها عبد شمس شيئًا ، إذ ما بقى من الشرف كاللواء والندوة والحجابة فى بنى عبد الدار .

وهكذا سبق هاشم أخويه فى الشرف ، سبق المطلب ونوفل فقد كان يكبرهما ولا ضير عليهما من ذلك . ولكن بقيت المنافسة بين هاشم وعبد شمس اللذين يتساويان فى السنّ والعصب .

امتلأ قلب عبد شمس بالحقد والضغينة على أخيه هاشم الذى صار سيد العرب بلا منازع ، فصبر على مضض حتى تدور الأيام دورتها وينقلب الحال ، فكان يكثر من أسفاره فى البلاد ولا تبرح خياله أبهة الرئاسة التى يتمتع بها أخوه المقيم فى مكة وحوله أشرافها يبجلونه ويعزونه فيزداد أبهة وعزة خلقت فيه .!

ويموت هاشم فتزداد الأمور تعقيدًا ببعدها عن عبد شمس إذ تلقفها بعده ابنه عبد المطلب بن هاشم .

ويموت عبد شمس ويخلفه ابنه أمية ليرى الجاه العريض الذى حرم منه أبوه فيشتد ألمه وتكثر أوجاعه لما فى يد عبد المطلب سيد مكة .

ويلى عبد المطلب أمر قريش فيضيف إلى الشرف الموروث شرفًا مكسوبًا فيطعم الطعام للناس وينفق مما رزقه الله ، فأحبه الناس والتفوا حوله ، وعلا صيته ، واشتهر اسمه فى كل البقاع ، ثم يضيف إلى بنى هاشم مجدًا تليدًا فيحفر زمزم بيديه بإلهام من ربه عزّ وجلّ ، ثم يسوق إليه جيش أبرهة فيخرج إليه عبد المطلب ، فيكلمه فيما استولى عليه من الإبل ولا يحدثه عن البيت الحرام لإدراكه أن له ربًّا يحميه مما أثار حفيظة أبرهة فيأمر جيشه بهدم الكعبة بعد ما ردّ الإبل إلى عبد المطلب الذى صعد مع قومه أحد الجبال وراح يدعو ربه أن يحمى البيت العتيق ، فإذا بهم يرون جيش أبرهة قد حصده الطير الأبابيل التى هجمت عليهم فجأة من السماء .

وهكذا كتب لهذا البيت الهاشمى أن يسود وأن ينال من الحظوة والحب فى قلوب العباد كأنما أعده الله سبحانه وتعالى بشىء يراد ! ففى كل منافسة بينهم وبين بنى أمية يخرج البيت الهاشمى مرفوع الجبين ، وضّاء السريرة مزدانًا بالجاه والعزّ حتى صار حديث القريب والبعيد على السواء .

ومن أمثلة ذلك التنافس بين الآباء والأجداد أن حفر هاشم ابن عبد مناف بئر « بذّر » فى مكة ليستقى منها الحجيج ، قال يفتخر :

أنيطت بذّر بماء قلاس
جعلت ماءها بلاغًا للناس

وعند ذلك حفر عبد شمس بئره « الطوى » ليستقى منها أيضًا الحجيج والناس ، فقالت سبيعة ابنته تفتخر :

إن الطوى إذا ذكرتم ماءها
صوب السحاب عذوبة وصفاء

★ ★ ★

ثم إن أباه كان قد حفر بئرًا وأسماها الحفّر وجعلها لنفسه دون الناس خالصة متباهيًا بجاهه .

وفى حرب الفجار كانت العرب تحت قيادة حرب بن أمية ابن عبد شمس ، وكان رسول الله ﷺ صبيًّا ينبل لأعمامه النبال ويساعد قومه من بنى كنانة على قيس عيلان .

وكان حرب بن أمية قائد كنانة ومن والاهم من قريش كما كان قائدهم فى يوم عكاظ وكان معه أخوه عمرو الذى قال فيهما الشاعر :

أما سألت عن أهل مكة ماجدا
فاسأل أبا عمرو وحرب الفاضلا
أخوان مثل أبيهما للمعتفى
قد أحرزا مجدًا قديما كاملا

★ ★ ★

وعاش حرب زمنًا طويلًا ملازمًا لعبد المطلب بن هاشم إلى أن أفسدها يهودى رأى فى تضامن الحيّين القويّين من العرب قوة على من عاداهم ، فجاء اليهودى إلى عبد المطلب ابن هاشم وكان يتسوق فى أسواق تهامة بماله ، فاغتاظ حرب ابن أمية من ذلك اليهودى ، فالب عليه فتيانًا من قريش فقتلاه ، ولم يعرف عبد المطلب قاتليه ، فلم يزل يبحث عن أمره حتى علم به فأتى حرب بن أمية فلامه على صنعه ، وطالب بدم جاره ، ولكن حربًا أجار قاتليه ولم يسلمهما ، فتطاولا وتغالظا فى القول بعضهما لبعض ، ثم تنافرا وجعلا بينهما نفيلًا بن عبد العزى فحكم لعبد المطلب على حرب ، كما أشاد أيضًا بحرب فقال له :

« أتنافر رجلًا هو أطول منك قامة وأوسم منك وسامة وأعظم منك هامة ، وأكثر منك ولدًا ، وأجزل منك صلة ، وإنى لأقول هذا وإنك ليعيد الغضب ، رفيع البيت فى العرب ، جليل السريرة ، تحبك العشيرة ، ثم قال نفيل :

يا حرب ما بلغت مسقاتكم هيعًا
يسقى الحجيج وماذا يبلغ الهيع
أبوكما واحد والفرع بينكما
منه الغساس ومنه الناضر اليفع

★ ★ ★

بهذه المفاخرة افترق الاثنان وتباعدا ، ثم مات حرب بن أمية مقتولًا ، قيل قتله الجنّ هو ومرداس بن عامر لإحراقهما شجر قرية فى ديار بنى سليم .

من هذه المنافسة تتضح لنا بصورة مجملة طباع بنى أمية وهى طباع عربية أصيلة إلا أن منافسه كان قد هيأه الله - عزّ وجلّ - ليكون جدًّا لسيد الخلق أجمعين ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ .

★ ★ ★

(٣)

« أبو سفيان والنبى ﷺ »

منذ هذه اللحظة التى يقف فيها النبى ﷺ وقد اتسع نطاق المنافسة بينه وبين أبى سفيان ، ولكن شتان بن نبىّ يمده الله بأسباب القوة ويعد من سادات العرب وبين أبى سفيان .

لم يؤمن أبو سفيان بدعوة محمد ﷺ ولا بنو أمية إلا النذر القليل منهم ، مثل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أما بقية القوم فقد كفروا بمحمد ﷺ وناصبوه العداء ، وهو عداء اتضح فى ظاهره عداء عقيدة ، بينما يبطن فوق هذه الصفة عداء المنافسة القوية بين بنى هاشم وبنى أمية على الرئاسة والجاه .

ولقد عبر عن ذلك أبو جهل « عمرو بن هشام » حين قال بلسانه معبرًا عن اختلاف العرب على محمد ﷺ ورسالته ، إنهم إن تتملكهم بنو هاشم إلى الأبد وتمتلك زعامتهم فلا تخرج منهم أبدًا ويعلوهم الهاشميون بالنبوة . قال البلاذرى .

« إن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر ،

تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض ، لا تعودوا لو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى أنفسهم شيئًا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا دخل الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض :

« لا نبرح حتى نتناهى ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال : أخبرنى أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعته من محمد ؟ فقال : والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به كذلك .

ثم خرج الأخنس من عنده فأتى أبا جهل ، فقال :

يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعته من محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا ما تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ، قالوا منا نبىّ يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه » .

فغاية الجفاء عندهم هو ذلك التنافس على الزعامة وهذا ما اتضح من التاريخ ، فهذا أبو سفيان بن حرب بن أمية يروى لنا فيقول :

قال رسول الله ﷺ لعكرمة بن أبى جهل :

قاتلتنى وأنت تعلم أنى رسول الله ؟ قال : لا .

وقال لابن سفيان مثل ذلك فقال أبو سفيان :

علمت أنك صدوق لا تكذب وإنما قاتلناك لأنك تعلم حالى فى قريش وجئت أمرًا لا يبقى معه شرف ، فقاتلناك حمية وكراهية أن يذهب شرفى .

فأبو سفيان أفصح عما فى دخيلته عن ذلك التنافس الشديد على الزعامة التى امتدت بجذورها عبر الأجداد والأجيال ، فلما فتح الله على رسوله ﷺ مكة ورأى أبو سفيان جيش رسول الله ﷺ وأنه وقريش لا مثيل لهم به ، أعلن إسلامه ، ولكنه لم ينس مكانته فى قريش ولا منافسته للزعامة فقد ظل فترة طويلة يتحين الفرصة ولو بعد حين مخفيًا ما فى نفسه ولم يتمكن الإسلام من قلبه إلا بعد حين .

★ ★ ★

(٤)

لم يصدق أبو سفيان فى بداية إسلامه أنه هزم هزيمة عسكرية من النبى ﷺ ، فعزّة ذلك البيت الذى له اللواء والندوة على قريش تأبى الهزيمة وتأبى الإحباط ، هنالك كان فى حيرة من أمره ولم يجد له فى النهاية مناصًا من الركون إلى الهدوء لحين ، وحتى تتضح له الرؤية وينفسح له المجال ليرى أكثر من تلك الموازين التى تبددت أمامه بالنبوة ، حدث نفسه والنبى ﷺ يصلى بالمسجد ، فقال :

بأى شىء غلبنى ذلك الرجل ؟!!

حتى هذه اللحظة كان يظن أنها موازين قوى وأن ميزانه هو الراجح على تلك الموازين ، لم يمس الإيمان قلبه إلا قليلًا ، لذلك غاب عنه ما أفصح عنه النبى ﷺ حين فرغ من صلاته والتفت إليه ، وقال :

بالله غلبتك يا أبا سفيان !

فيؤمن أبو سفيان فى دهشة بالغة لمعرفة النبى الكريم بمكنون نفسه ، فيقول للنبى : نعم .. إذن .. نعم .. نعم .

كأنه آمن بالله القوى العزيز ولكن ما زال فى نفسه شىء من محمد الذى ينافسه الزعامة ، إلا أنه برغم ذلك أيقن أنها مسألة نبوة وأن المنافسة على الزعامة سوف تشتد بعد وفاة النبى ﷺ وأن ابنه معاوية الذى سينصر ذلك البيت المغلوب ويسلب إرث الغالب وأن يتخلف بنو هاشم عن الركب ليسود بنو أمية . لم يكن أبو سفيان حامل الذكر ولا حامل العقل مثل إخوته . فأبوه حرب بن أمية قد أنجب غيره من الذكور ممن غفل التاريخ عنهم وهم : « الحارث ، وعمرو ، وعمر » ، ومن الإناث « أم جميل حمّالة الحطب » .

إلا أن أبا سفيان حمل فى قلبه حميّة بنى أمية وشجاعتها وجرأتها على اقتحام الصعاب من أجل أن يسترد لها الجاه والرئاسة والسيادة ، فرأى أبوه حرب أنه يتمتع بتلك الخصال منذ صغره فأسماه صخرًا . حمل أبو سفيان الذى ولد قبل عام الفيل بعشرة سنين ، حمل على كاهله تاج قريش وقلادة السيادة حتى وهو مسلم وليس هذا بقليل فى شأن إسلامه ، لأن إسلامه هو استسلام الموروثات القديمة التى ترسبت فى دمائه ، فلا مانع لديه أن يكون مسلمًا وهو سيد المسلمين .

كان له طموح سياسىّ لا يقف أمامه حائل أو عائق دينى أو عقائدى ما دام فى الإمكان أن يصل بقومه إلى مرتبة الزعامة والشرف . فهو فى قريش بمكان عزيز وله من الأبناء والإخوة والأخوات والعمات والحفدة ما يؤهله لتلك الزعامة

المنشودة التى كرس حياته لها فلم يوفق مع النبوة ، فادخرها إلى حين وأورثها النّابه من أولاده وخص بالذكر ابنه معاوية .

ولعلنا نوجز عصب أبو سفيان فى بنى أمية وحسبه ونسبه فى القبائل لنرى تشعب ذلك الزعيم فى كل البطون ، فأمه هى صفية بنت بجير من بنى عامر بن صعصعة وهى عمة لاثنتين هما ميمونة أم المؤمنين وأم الفضل بنت الحارث بن حزن أم بنى العباس بن عبد المطلب .

أما أبناؤه فهم : حنظلة ، وبه كان يكنّى ، ولم ينجب حنظلة الذى قتله الإمام علىّ يوم بدر ، فلما قتل أبو سفيان حنظلة ابن عامر فى غزوة أحد ، قال : حنظلة بحنظلة .!

ومن أبنائه : أم حبيبة ، واسمها رملة وقد تزوجها النبى ﷺ . بعد وفاة زوجها عبد الله بن جحش وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبد الله فى الهجرة الأولى فخطبها رسول الله ﷺ فى الحبشة حين مات زوجها هناك وجهزها النجاشى وأرسلها إليه ﷺ .

وأميمة : تزوجها حويطب بن عبد العزّى من بنى عامر بن لؤى فولدت له أبا سفيان بن حويطب ، ثم تزوجها بعده صفوان ابن أبيه بن خلف الجمحى فولدت له عبد الرحمن بن صفوان والمغيرة بن شعبة .

ويزيد بن أبى سفيان : وأمه زينب بنت نوفل ، وقد ولّى من قبل أبى بكر الصديق ربع الشام ومات فى زمن عمر بن الخطاب .

ومحمد بن أبى سفيان : وهو القائل :

أومل هندًا أن يموت ابن عامر
ويرمله يومًا أو يطلقها عمرو

وهو يقصد هنا هندًا بنت معاوية بن أبى سفيان وأمها رملة .

وعتبة بن أبى سفيان : وأمه من الأزد .

وعمرو بن أبى سفيان : أسر يوم بدر فقيل لأبى سفيان ألا تفدى عمرًا ، فقال : قتل حنظلة وأفدى عمرًا فأصاب بمالى وولدى لا أفعل ، ولكن انتظر حتى أصيب منهم رجلًا فأفديه به فأصاب سعد بن النعمان من بنى عوف ، جاء معتمرًا فلما قضى العمرة عرفه أبو سفيان فأسره وكان معه فى الأسر المنذر بن عمرو ، ففدى سعدًا بابنه عمرو .

وهند بنت أبى سفيان : تزوجها الحارث بن نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب فولدت له عبد الله ، ومحمد وعبد الرحمن وربيعة .

وصخرة بنت أبى سفيان : تزوجها سعد بن الأخنث من ثقيف قال عنه الرسول ﷺ : أيده الله فإنه كان يبغض قريشًا .

وميمونة بنت أبى سفيان : تزوجها رجل من بنى حذيفة وهو مرة بن عروة ولدت له ليلى بنت أبى مرة ، ثم تزوجها الحسين بن على فولدت له عليًا بن الحسين الأكبر .

ورملة بنت أبى سفيان : تزوجها محمد بن حذيفة بن عتبة ابن ربيعة ، فقتل عنها يوم اليمامة .

ومعاوية بن أبى سفيان : ولنا معه كل الحديث .

وجويرية : تزوجها السائب بن أبى حشيش ، ثم تزوجها عبد الرحمن بن عبد شمس .

وعتبة بن أبى سفيان : شهد مع أم المؤمنين عائشة يوم الجمل ثم فرّ هاربًا من القتال . ثم لحق عتبة أخاه معاوية فى الشام فولّاه الطائف وعزل أخاه عتبة ، وفى ذلك يقول عتبة :

كنا لصخر صالحًا ذات بيننا
جميعًا فأمست فرقت بيننا هند

وهو يقصد هنا هند أم معاوية وجويرية وأم الحكم وعتبة .

★ ★ ★

(٥)

لعلنا نذكر هنا أن معاوية كان له حظ وافر من الأولاد الذكور وكذلك الإناث والأصهار لكل قبائل العرب ولعل ديدنه فى ذلك هو ديدن بنى أمية ، فقد كانت تكثر من نسلها ومن تعاظم قوتها فتحوز بالعدد السيادة على العرب وكان أبو سفيان قدوتهم فى ذلك ، حبّب إليهم السطوة والكبرياء والأنفة وغريزة التملك وحب الحياة .

ألم يقل لرسول الله ﷺ فى فتح مكة : يا رسول الله اجعل لنا فى هذا الأمر شيئًا !. وفطن النبى المختار ﷺ لقوله فقال : من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن !

فأبو سفيان كان من طراز خاص من الرجال ، كان نفعيًا يحب المنفعة لنفسه ثم لقومه ، ويحب الجاه والسلطان والأبهة ولو بذل فى سبيلها الجهد ليقينه أنه ما دام قد حاز على السلطة فإن المال سوف يسعى إليه سعيًا ، فلنتأمل قوله حين توفى النبى ﷺ . كما يروى البلازرى : وهو قول يفصح عما فى دخيلة أبو سفيان وقتئذ وحبه وتطلعه للرئاسة وهو فى الحقيقة

قول رجل سياسى لا يبعد عن مناورة الدهاة ، حين قبض رسول الله ﷺ قال أبو سفيان : « تلقفوها الآن تلقف الكرة لا من جنة ولا من نار » .

وليس هذا تشكيكًا فى إسلام أبى سفيان ، ولكنا نوضح أن الرجل سياسى عتيق فدينه وإيمانه يتساوى عنده بدنياه وحياته وتطلعاته ، فالمسألة عنده بيع وشراء وهو شيخ تجار مكة ، لقد أيقن أنه لا سبيل إلى ترك الدين أو تغيير تلك الديانة التى انتشرت فى كل الأرجاء والتى يزحف إليها قلبه يومًا بعد آخر ، إلا أنه بعصبيته ودّ أن يئول الأمر إليه فيكون هو السيد المطاع فى هذا الدين الجديد والمرجع الوحيد للعرب ولقريش .

لقد عاش للسيادة ولا سبيل أمامه غيرها بحال من الأحوال ، فها هو يسأل بعد موت النبى الكريم ﷺ عن الولاية ولم يسأل عن غيرها ، فلما علم أنه أبو بكر الصديق قال : « أبو الفصيل ـ تصغيرًا لشأنه ـ ثم أردف ، إنى لأرى الأمر لا يسكنه إلا الدمّ ! » .

حطّ من شأن أبى بكر وأرادها فتنة واضطرابًا لا يسكنه إلا الدم معتمدًا فى ذلك على عصبيته فى قومه وكثرة عددهم .

إنها إذن السيادة والزعامة عنده ، وهى فكرة مدروسة لديه . ظل يمهد لها الطريق ويشق لها العباب يومًا بعد يوم .

ففى غزوة حنين وكان أبو سفيان قد أسلم قبلها يوم الفتح فى هذه الغزوة التى هزم فى بدايتها المسلمون معتمدين على

كثرتهم ، صاح أبو سفيان « ويها بنى الأصفر ، لن تنتهى هزيمتهم دون البحر ! » .

نفس المقياس الذى يقيس به الأمور !

إذن هى الزعامة التى يسعى إليها ويتمنى أن ينتزعها من بنى هاشم التى حظيت بالنبوة ، فليعدّ إليها أبو سفيان بعد النبوة مع عدم المساس بالعقيدة والدين .

بهذه القريحة النفعية والسياسة السفيانية علّم أبو سفيان ابنه معاوية على الدهاء ومماألأة الدهماء ، وفتح له طريقًا طويلًا لعله يعرج فيه ولو بعد حين .

★ ★ ★

(٦)

« أم معاوية »

كانت أم معاوية هى اللبنة القوية التى ارتكن إليها معاوية ، وارتكن إليها أيضًا أبو سفيان .

فهى هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، يمتد نسبها بين بنى أمية وبين بنى هاشم من عبد مناف .

يقول المؤرخون : إنها كانت زوجة للفاكه بن المغيرة المخزومى ، وكان له بيت ضيافة يأوى إليه الناس فيغشاه الفتيان والرجال من غير إذن ، فخلا البيت ذات يوم فاضطجع هو وهند فيه ، ثم نهض ليقضى حاجته ، وأقبل رجل ممن كانوا يغشون البيت فولجه ، فلما رأى هندًا رجع هاربًا ، وأبصره الفاكه فأقبل إليها فركلها برجله ، وقال :

من هذا الذى خرج من عندك ؟!

قالت : ما رأيت أحدًا ولا انتبهت حتى أنبهتنى .

قال : لا . ارجعى إلى أمك .

وتكلم الناس فيها ، وقال لها أبوها : يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك فأنبئينى بنبئك . فإن يكن الرجل عليك صادقًا

دسست عليه من يقتله فتنقطع عنك المقالة ، وإن يكن كاذبًا حاكمته إلى بعض كهان اليمن .

قالت : لا والله ما هو علىّ بصادق .

فقال له : يا فاكه ، إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم ، فحاكمنى إلى بعض كهان اليمن .

فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة ، فلما شارفوا البلاد ، وقالوا غدًا نرد على الرجل تفكرت حال هند فقال لها عتبة :

إنى أرى ما حل بك من تنكر الحال ، وماذاك إلا لمكروه عندك .

قالت : لا والله يا أبتاه ماذاك لمكروه ، ولكنى أعرف أنكم تُحَكِّمون بشرًا يخطئ ويصيب ولا آمنه حتى يسمنى ميسمًا يكون علىّ سبّة .

فقال لها : إنى سوف أختبره .

فصفّر بفرسه حتى أولى ـ أى أخرج جروانه ليبول ـ ثم أدخل فى إحليله حبة برّ وأوكأ عليها بسير ، فلما قعدوا قال له عتبة : جئناك فى أمر وقد خبأت لك خبئًا اختبرك به فانظر ما هو ؟

فقال : ثمرة فى كمرة .

قال عتبة : إنى أريد أن أبيّن من هذا ؟

قال : حبة برّ فى إحليل مهر .

فقال : صدقت ، انظر فى أمر هؤلاء النسوة .

فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ، ويقول : انهضى حتى دنا من هند ، فقال لها :

انهضى غير زانية ، ولتلدن ملكًا يقال له معاوية .

ففرح الفاكه مما سمع وأخذ بيدها فنثرت يدها من يده ، وقالت :

إليك عنى ، فوالله إنى لأحرص أن يكون ذلك من غيرك .

أيقنت هند أنها ستلد ملكًا على العرب فحرصت أن يكون أبوه قويًا .

واختلف المؤرخون فى زواجها من حفص بن المغيرة ، فمنهم من قال إنه بعد الفاكه ، ثم مات دون أن ينجب ، ومنهم من قال إنه كان قبل الفاكه . إلا أنه تقدم لخطبتها رجلان من أشراف قريش ، هما : أبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو بن عبد شمس أخبرها أبوها بذلك وقال لها :

خطبك من قومك كفآن كريمان .

فقالت ـ وقد كانت امرأة فطنة كيّسة ـ : صفهما لى :

فقال : أحدهما سهيل بن عمرو ، وهو موسر سخىّ ، سيد مفوض يحكم فى ماله . والآخر أبو سفيان بن حرب ، وهو شريف وسيد حازم .

قالت هند : الحازم أحبهما إلىّ .

وهكذا تزوجت هند من أبى سفيان ولم تسلم إلا معه فى عام

الفتح وكانت قبل إسلامها من ألدّ أعداء المسلمين وعدوة شرسة للنبى ﷺ تؤلب عليه المشركين ، وكان تحريضها لقريش ليس عداوة فى بنى هاشم ولا فى الرسالة ولكنها عداوة من عادى قومها ويودّ أن ينتزع الزعامة من زوجها ، الذى كان يأخذ برأيها ويعمل بقولها ، فها هو أبو لهب حين عاد قومه من بنى هاشم وبنى المطلب يلاقيها ، فيقول لها :

يا بنت عتبة هلا نصرت اللات والعزى ، وفارقت من فارقهما وظاهرت عليهما ؟

قالت له : نعم . قال : جزاك الله خيرًا .

فناصرت قومها وحرضتهم على القتال فى بدر مع النسوة من قريش ، أخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ليشددن من أزرهم وكانت هند تقول فيما تقول من الشعر :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضربًا بكل بتّار

وتقول أيضاً :

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

★ ★ ★

كانت تناصر قومها بلسانها وبيديها ، فقد كانت متوقدة حميّة وحماسًا وعداء لمن يعادى قومها ، فها هى ترثى أباها عتبة ابن ربيعة الذى قتل فى بدر مع أخيها الوليد بن عتبة وعمها

شيبة بن ربيعة وابنها . فها هى ترثيهم بعد بدر فى رثاء حزين فتقول :

لله عينا من رأى هلكًا كهلك رجاليه
يا رب باك لى غدًا فى النائبات وبانيه
كم غادروا يوم القليب غداة تلك الواعيه
من كل غيث فى السنين إذا الكواكب خاويه
قد كنت أحذر ما أرى فاليوم حق حذاريه
يا رب قائلة غدًا يا ويح أم معاويه

هو شعر منظوم يعبر عن مكنون آلامها بفقدها الأب والأخ والعم فى حرب ثأر ضارية ، وبرغم هذا الألم عف لسانها عن الفحش والتجريح .

حملت هند ضغينة لما قتل أبوها وكان القاتلان هما فرسا المسلمين ، حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب ، حملت لهما كل الحقد والضغينة كعادة العرب فى الثأر ، فلما كانت موقعة أحد خرجت مع زوجها أبى سفيان وخرج معها نساء قريش ، كما أمرهن أبو سفيان ليكُنّ عونًا للفرسان وحتى يخذل الرجل من الفرار أمام زوجته .

وقاتلت النساء فى أحد ، كنّ يضربن الهاربين من المشركين ، ولقد كادت تقتل هند فى هذه المعركة حين مرّ بها أبو دجانة والسيف فى يده فحمله على مفرقها ، ثم عدل عنها استحياء أن يقتل بسيف رسول الله ﷺ امرأة وهو الذى أهداه له بحقه .

واشتدت المعركة وكتب الله النصر للمسلمين فى بدايتها ، ورؤيت هند مع صويحباتها يشمرن للهرب خوفًا على حياتهن ، فهذا الزبير رضى الله عنه يقول : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل أو كثير إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفن القوم وخلّفن ظهورنا للخيل فأتتنا من خلفنا .

وما إن انكشف المسلمون حين خالفوا أمر الرسول ﷺ ودارت عليهم الدائرة حتى كادت هند من كثرة ما عندها من غل وثأر تمثل بالقتلى من المسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ ، فكأنما قد أصابها الجنون فظلت تقطع أنوف الرجال وآذانهم وتتخذن منها قلائد انتقامًا لما أصاب قومها فى الغزوتين .

ثم إنها أمرت عبدها الحبشى ومنّته بالحرية وأعطته ما معها من ذهب إن هو قتل حمزة عم رسول الله ﷺ ، وكان وحْشىٌّ عبدًا حبشيًا يجيد رمى الحربة ، فاهتبل من حمزة البطل فرصة سانحة فقذفه فى ظهره بحربته التى لا تخطئ فسقط شهيدًا .

وهجمت هند على بطن حمزة فبقرتها وأخرجت كبده ولاكته فى فمها من الغيظ فلم تستطع أن تستسيغ كبده فلفظتها ، ثم علت صخرة مشرفة على القتال ، وصاحت :

نحن جزيناكم بيوم بدر
الحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان من عتبة لى من صبر
ولا أخى وعمه وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى
شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى
حتى ترمّ أعظمى فى قبرى

★ ★ ★

إننا لا نستطيع أن ننكر ما ذكره الرواة من وجد هند على قتلاها من قومها فهى امرأة صعبة المراس تمتلك صفة الزعامة مع زوجها أبى سفيان ، فقد كانت صرخاتها تعبّر عن مصابها الأليم فى أبيها وعمها وأخيها وبكرها وقتلى قريش ، كانت مصيبتها فى التاريخ أكبر من مصيبة الخنساء فى أخيها صخر .

يحكى أبو الفرج الأصفهانى : « لما كانت وقعة بدر قتل فيها عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ، فأقبلت هند ترثيهم ، وبلغها تسويم الخنساء هودجها فى الموسم ومعاظمتها العرب بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك ، فلما أصيبت بما أصيبت به وبلغها ذلك ، قالت :

أنا أعظم من الخنساء ، وأمرت بهودجها فسوّم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت : أقرنوا جملى بجمل الخنساء ، ففعلوا ، فلما دنت منها قالت لها الخنساء : من أنت يا أخية ؟

قالت : أنا هند بنت عتبة ، أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغنى أنك تعاظمين العرب بمصيبتك . فبم تعاظمينهم ؟

قالت الخنساء : بعمرو بن الشريد ، وصخر ، ومعاوية ابن عمرو ، وبما تعاظمينهم أنت ؟ قالت : بأبى عتبة ، وعمى شيبة بن ربيعة وأخى الوليد .

قالت الخنساء : أو سواءً هم عندك ؟ ثم أنشدت تقول :

أبكى أبى عمرًا بعين غزيرة
قليل إذا نام الخلىّ هجودها

إلى أن قالت :

فذلك يا هند الرزية فاعلمى
ونيران حرب شب وقودها

فردت عليها هند ، قائلة :

أبكى عميد الأبطحين كليهما
وحاميهما من كل باغ يريدها
أبى عتبة الخيرات ويحك فاعلمى
وشيبة الحامى الذمار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب
وفى العزّ منها حين ينمى عديدها

★ ★ ★

كانت آلامها تعبّر عن نفسها المكلومة ، ولا حرج فى ذلك أن يعبّر الإنسان عن ألمه ، أما تمثيلها بجثث الموتى فذاك شىء لم يعرفه العرب ، إلا أنه يدل بداهة أنها كرهت بقلبها وانساقت وراء عواطفها ولم تستعمل عقلها فى الانتقام من مصابها الأليم ، إلّا أن ذلك القلب كان له شأن آخر بعد إسلامها ، كان مدفوعًا بغريزة العاطفة دون سواها ، تملكة الانتقام عندها لم تشف بعد فهاهو زوجها أبو سفيان حين فتح الله على رسوله ﷺ مكة ، وحين صرخ فى قريش ينذرهم من جيش رسول الله ﷺ ، قائلًا : « يا معشر قريش هذا محمد وقد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .

هذا زوجها وقد أسلم وأراد أن يجعل لنفسه شيئًا حتى فى الهزيمة ، فتنهض إليه توبخه بتلقائية عفوية فتقول « اقتلوا الحميت الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم » .

فيرد أبو سفيان فيقول : « ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به » .

أبو سفيان ينظر إلى الأمر نظرة واقعية فيها كياسة وسياسة وزوجته هند تندفع بدوافع العاطفة التى تأبى التفكير إلا فى الانتقام حتى لو كان من زوجها سيد قريش .

كان تمسكها بعقيدتها كبيرًا ومن العسير أن تفرط فى معتقدها بسهولة وهى التى لا تفكر إلا بقلبها ولا تنساق إلّا وراء عاطفتها ، فحين امتلأ قلبها بالدين وبّخت نفسها على

ما بدر منها فى كفرها . أما أبو سفيان فقد ركب الدين مطية ليصيب به دنيا ، رأى أن يهادن محمدًا ليصيب من ورائه ما لم يكن فى إمكانه أن يناله وهو على كفره ، فإن علا نجم محمد فملكه ملكه .

تلك كانت سياسة أبى سفيان كما كانت سياسة صهره عتبة ابن ربيعة والد هند قبل أن يقتل فى بدر والتى لم ترث منه هند ما يرث الأبناء من صفات الآباء .

فعتبة هو الذى ذهب إلى رسول الله ﷺ سفيرًا لقريش ليقنع رسول الله ﷺ بترك ما هو فيه ، ويقنعه بالعدول عنه مع إغداقه عليه بما يريد من ملك وجاه ومال .

ذهب إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السّلطة ـ الشرف ـ فى العشيرة والمكان فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ورميت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به ما مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد . فقال :

يا ابن أخى ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا ، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه

لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما انتهى من قوله هذا لرسول الله ﷺ قال له :

أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم .

قال : فاسمع منى :

ثم أخذ رسول الله ﷺ فى تلاوة سورة ﴿ حٰمٓ ﴾ فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما ليستمع منه حتى إذا ما انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة سجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فلما ذهب عتبة إلى أصحابه قالوا : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا :

ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسّحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلّو بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد لقيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

كان عتبة قريبًا من الليونة بعيدًا عن الجفوة لا تقطع ما بينه وبين رسول الله ﷺ من قرابة مثلما فعلت قريش ، كان أسلوبه فى محاربة الدعوة بالعقل واللين ، حتى أننا نراه يرق لحال رسول الله ﷺ يوم الطائف حين اعتدوا عليه بالحجارة حتى سال منه الدم فيرق لحاله ويبعث إليه قطفًا من عنب مع غلام له ، ولقد عبّر رسول الله ﷺ عن ليونة عتبة بن ربيعة يوم بدر حين انساق إليها عتبة وأخوه شيبة حيث قال رسول الله ﷺ حين رآه راكبًا جملًا أحمر : « إن يكن فى أحد من القوم خير ففى صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا ».

إلا أن حمية الجاهلية قد دفعته للقتال يوم بدر مع أخيه شيبة وابنه الوليد فتصدى لهم أقاربهم من بنى هاشم فقتلوهم قبل أن يلتقى الجمعان ، قتل حمزة شيبة ، وقتل على الوليد وقتل عبيدة ابن الحارث عتبة بن ربيعة الذى طعنه أيضًا فحمله حمزة وعلى إلى معسكر المسلمين مصابًا بالطعان فإذا بعبيدة بن الحارث يجد حذيفة بن عتبة الذى سأله رسول الله ﷺ حين رأى لونه قد تغير فقال :

يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك فى شأن أبيك شىء ؟

فقال : لا والله يا رسول الله ، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف فى أبى رأيًا وحلمًا وفضلًا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه ذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك .

لقد دفع عتبة إلى القتال فى يوم بدر أمام جبروت أبى جهل ، فقد كان لعتبة عقل راجح ورأى صائب وفضل معروف ، إلا أن انتماءه لقومه كان أكبر من انتمائه لنفسه ، فخسّر قومه وأضاع نفسه فى الكفر والعناد .

وهكذا دفع عتبة إلى القتل مدفوعًا بدوافع جاهلية وحرم من نعمة الإسلام ، كما كان لموته ضغينة قوية فى أحشاء ابنته هند لم تمحها الأيام .!!

★ ★ ★

(٧)

« إسلام أبى سفيان وهند »

نشأ معاوية من أبوين أحدهما يتطلع إلى الزعامة وإن سفك من أجلها الدماء ، فقد كان مطمع أبى سفيان منذ الأجداد رئاسة القوم منذ عبد مناف ، وأبو سفيان لا تعوزه الوسيلة ليصل إلى ما يريد حتى لو هادن خصمه لينزع منه ما يريد .

ذكر البلاذرى : أن أبا سفيان أقبل من الشام ومعه هند ومعاوية على حمار فلما دنوا من مكة لقيهم رسول الله ﷺ فقال أبو سفيان لابنه معاوية : انزل يركب محمد . فقالت هند : أينزل ابنى لهذا الصابئ ؟ قال : نعم .

هند قد امتلأت ضغينة وهى أحرص من أبى سفيان على ما تدين به هى وآباؤها لا تفرط فيه بسهولة وهى غير أبيها عتبة وزوجها أبى سفيان الذى يمهد للسيادة وإن كانت من محمد ﷺ .

ولكننا لا يسعنا ونحن بصدد الحديث عن معاوية إلا أن نذكر نبذة من حياة أبى سفيان فى جاهليته لنرى ما رأى معاوية من أبيه وما تعلمه منه فى صباه ، ولنربط بين تلك المقدمات التى مهدت لمعاوية الملك العضود .

فأبو سفيان ليس بالرجل الخمل المغمور ولا بالوهن المضمور ، فهو ذائع الشهرة موفور العدد موصول النسب بكل قبائل العرب وله من الأحفاد والبنين ما يزهو بهم فى قريش ، فلقد ورث عرشًا من الجاه فزاد عليه وأصهر إلى العرب فكثر الناس لديه ، وأنجب من البنين فأينع الزهر بين عينيه .

وهو مع هذه المميزات كان رجل كسب لا غرم أخّاذ ليس بمعطاء ، نشأ تاجرًا ماهرًا ذكيًا فطنًا ، فأغراه الكسب إلى المزيد وإن ساقه جمع المال فى كثير من الأحيان إلى ما لا تحمد عقباه .

فقد خرج إلى التجارة مع أبيه حرب وخرج وحده بعد أبيه ولم يغب عن عينيه ذلك المكسب المأمول وهو السيادة ليقينه أن المال عصب الحياة والطريق السهل إلى السيادة والجاه .

يقول أبو سفيان : أهديت إلى كسرى خيلًا وأدمًا ، فقبل الخيل ورد الأدم ، ثم أدخلت عليه فألقى إلىّ مخدة كانت عنده ، فقلت : واجوعاه ، أهذه حظى من كسرى بن هرمز ! ثم يمضى أبو سفيان فى حديثه فيقول :

فخرجت من عنده فما أمر على أحد من حشمه إلا أعظمها حتى دفعتها إلى خازن له فأخذها وأعطانى ثمانمائة من فضة وذهب ، وكانت وظيفة المخدة ألفًا إلا أن الخازن اقتطع منها مائتين .!

واجوعاه .. هكذا نطق لسانه فعبر عن خبايا حاله ونفسه المحبة للمال الباحثة عنه بأى حال من الأحوال ، وهو عندما

ذهب لكسرى إنما ذهب ليكسب لا ليهدى عن طيب خاطر ، وآلمه ألا يعرف فضل المخدة وقيمتها برغم ما فى يده من ذهب وفضة .!

فأبو سفيان تاجر قبل كل شىء ويعمل حسابًا لكل شىء وتصرفه حيال ذلك لا يتعدى ذلك الحساب ، فلقد رووا أن حمزة بن عبد المطلب مرّ على نفر من بنى مخزوم فلاحاه رجل منهم ، وذكر رجل من المخزوميين نساء من بنى عبد مناف فما كان من حمزة إلا أن ضربه فقتله ، وهدأت نفس حمزة ورأى أن لا بد له أن يرضى القوم فأتى أبا سفيان ليجعله رسوله إلى قوم القتيل أو الحكم بينه وبينهم ، وأتى أبو سفيان القوم فعرض عليهم ثلاث ديات بصاحبهم ، ورآها القوم قليلة لا تفى فلم يقبلوها فانصرف عنهم أبو سفيان قابضًا يده عنهم بما مدّها به ، وخافوا أن يفوتهم ما عرض عليهم ، فسعوا إليه يطلبون منه ما قال ، وأحس أبو سفيان ضعف القوم وتخاذلهم ففهم أنه بين يدى دم أهدر ، وحسب أنه بين يدى تجارة يحسبها ويساوم عليها ، واستغل هذا الضعف من القوم فجلس بينهم بروحه التاجرة فإذا هو يقول للقوم : إن أهل القاتل يأبون أن يعطوا إلا دية واحدة ، وكما رفض القوم الثانية ورفضوا الأولى ، رفضوا هذه أيضًا ، وعادوا ولم يأخذوا شيئًا ، ويسكت عنهم أبو سفيان لا يسعى إليهم ولا يفاوضهم فى شىء ويحس القوم أنهم سوف يخسرون دمًا وديَة فيرتدون إليه يطلبون الدية ولا شىء أدنى من ذلك فإذا أبو سفيان بعد ما عرف ضعفهم وهوانهم يأبى عليهم هذه الدية الواحدة ويقول لهم : هذا قتيل لا دية له ، فطُلّ دمه ، أى أهدر .!

من هذه القصة يتضح لنا أن أبا سفيان لم يكن تاجرًا فحسب ولكن كان سياسيًا من الطراز الأول ، ظل يساومهم فيما يطمعون حتى إذا ما اتضح أمامه نهمهم وجشعهم للمال حرمهم منه وأهدر دم قتيلهم فهو يعرف من أين يأكل الكتف ويعرف كيف يصل إلى ما يريد وهذا هو بيت القصيد .!

فلنتأمله وهو يصلح بن حيّين من العرب الموغلين فى البداوة والثأر وقفوا يشخصون إليه بأبصارهم ويستمعون إليه بآذانهم فيقول :

يا معشر قريش ، هل لكم فى الحق أو فيما هو أفضل من الحق ؟

فيقولون له : وهل شىء أفضل من الحق ؟ فيقول : نعم ، العفو .

سكت عنهم من قبل ، لم يقل شيئًا فإذا القوم مردودون إليه يطلبون الديتين ، وإذا أبو سفيان يقول لهم : إن أهل القاتل يأبون أن يعطوا إلا دية واحدة ، وكما رفض القوم الثانية ورفضوا الأولى ، رفضوا هذه أيضًا ، وعادوا ولم يأخذوا شيئًا ، ويسكت عنهم أبو سفيان لا يسعى إليهم ولا يفاوضهم فى شىء ويحس القوم أنهم سوف يخسرون دمًا وديَة فيرتدون إليه يطلبون الدية ولا شىء أدنى من ذلك فإذا أبو سفيان بعد ما عرف ضعفهم وهوانهم يأبى عليهم هذه الدية الواحدة ويقول لهم : هذا قتيل لا دية له ، فطُلّ دمه ، أى أهدر .!

من هذه القصة يتضح لنا أن أبا سفيان لم يكن تاجرًا فحسب ولكن كان سياسيًا من الطراز الأول ، ظل يساومهم فيما يطمعون حتى إذا ما اتضح أمامه نهمهم وجشعهم للمال حرمهم منه وأهدر دم قتيلهم فهو يعرف من أين يأكل الكتف ويعرف كيف يصل إلى ما يريد وهذا هو بيت القصيد .!

فلنتأمله وهو يصلح بن حيّين من العرب الموغلين فى البداوة والثأر وقفوا يشخصون إليه بأبصارهم ويستمعون إليه بآذانهم فيقول :

يا معشر قريش ، هل لكم فى الحق أو فيما هو أفضل من الحق ؟

فيقولون له : وهل شىء أفضل من الحق ؟ فيقول : نعم ، العفو .

وكأنه اطلع على نفوسهم وما يطمحون إليه ، فقد نفذ قوله فى قلوبهم فعفى بعضهم عن بعض شاكرين له هيبته وعظمته وكبرياءه .

ويروون أيضًا هذه القصة التى تدل على مكانته فى قومه هو وزوجته هند أم معاوية فكأنهما شربا من كأس واحدة وسقيا معاوية منها حتى الثمالة .

فقد أهدى يومًا ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة ، وطلب ألا ينحرها إلا أعز قريش ، وكان أبو سفيان عندها معرسًا بهند مشغولًا عن شئونه بها . فقالت له هند :

أيها الرجل لا تشغلنك النساء عن هذه المكرمة التى لعلّها أن تفوتك .

فقال لها أبو سفيان : يا هذه دعى زوجك وما يختار والله ما نحرها غيرى إلا نحرته .

فكانت فى عقلها حتى خرج إليها أبو سفيان فى اليوم السابع فنحرها .

عرف مكانته فى قومه وعرف قومه له هذه المكانة وإن كان أبو سفيان لا يضحى بماله فينال تلك الحظوة من السيادة عليهم وهذا هو الجانب القوى فى أبى سفيان ، فلقد استطاع بمهارته وكياسته أن يصل إلى الزعامة دون أن يعطى ، ولكنه كان يعطى لكل ذى حق حقه أو يقنعه بالرضا والعفو وتلك سياسة تستلزم الحكمة والخبرة فى الحياة مع جانب كبير من الحنكة والدهاء .!

فهذا اختبار آخر له مع رجل من الأسياد ، فقد باع إعرابىٌّ بضاعة له لأُبَىّ بن خلف وهو سيد من سادات قريش ، فطمع فى حق العربى ولم يدفع له ثمن ما أخذه واستجار العربى الضعيف بكل من لقى فما وجد أحدًا يجيره على أُبَىّ ، إلى أن بلغ خبره العباس بن عبد المطلب والعباس بن مرداس وكان حكيمًا يعزّ عليه أن يُظلم إنسان أمامه .

فقال ابن مرداس بيتًا من الشعر يخاطب فيه أبا سفيان والعباس :

ومن يكن بفناء البيت معتصمًا
يلق ابن حرب ويلق المرء عباسا
تولى قريش بأخلاق مكملة
بالمجد والحزم ما عاشا وما سَاسَا

فينهض أبو سفيان والعباس ويعطيا للعربى حقه من أُبَىّ ابن خلف .

كان أبو سفيان أول من يتصدى لحقوق الناس إذا كان هذا الحق لا يضيره وليس فيه غرم ، فلا تعوزه الحيلة أن يأخذ هذا الحق من سيد إلى مسود ، فقد كانت هيبته وشرفه لهما تأثيرهما على الجميع .

فهذا أبو جهل يلطم فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فرأت فاطمة أبا سفيان فشكت إليه ما فعل أبو جهل ، وأبو جهل يجمع بينه وبين أبى سفيان صفات كثيرة هى الرحم والزعامة

والسيادة كما يجمعهما أيضًا بفاطمة رضى الله عنها تلك الوشائج ، فينساق أبو سفيان نحو الحق ويأخذ فاطمة إلى حيث يجلس أبو جهل ويقول لها : الطميه قبحه الله .! وتلطم فاطمة أبا جهل كما لطمها وتقتص منه .

ولو كان أحد غير أبى سفيان فى هذه المهمة ما نجا من القتل من جبار قريش . فبهذه المنزلة وصل أبو سفيان إلى قمة السياسة وقمة العز فصار من المعدودين فى مكة .

بهذه المداخل دخل أبو سفيان الزعامة وتقمص قميصها الأوحد فأصبح ممن يشار له بالبنان .

وكان أبو سفيان برغم حبه للمال أمينًا وهو على شركه ، فلم يجعله المال ذلك النهم الذى يأكل حقوق الناس ، لقد أدرك أن السياسة ترغمه على أن يكون شريفًا أمينًا ليعلو بذلك على من سواه .

فالتجارة عند أبى سفيان مكسب كبير ، تزيده فى معرفة الناس وطباعهم ومواطن الضعف والقوة فيهم ، وهى فوق هذا وذاك مكسب وفير للمال فتجعل له منزلة عالية بين الأغنياء والأثرياء .

فلقد كان لرسول الله ﷺ تجارة عند أبى سفيان وكان أبو سفيان سيد مكة يحرض عليه المشركين ليل نهار ويعاديه سرًا وعلانية ، وكان رسول الله ﷺ فى بدء الدعوة مع نفر قليل من المسلمين ، فلم يشأ أن يسأل أبا سفيان عن بضاعته ،

فتعرض له أبو سفيان ذات يوم وقال له : يا ابن عبد الله ألا تريد بضاعتك ؟ لا أراك تذكرها ، فقال له رسول الله ﷺ : يا أبا سفيان إنه لابد من أن يكون فيها ربح ولو صنيعة وأى ذلك كان فأنت مؤدٍ فيه الأمانة إن شاء الله .

علم رسول الله ﷺ فيه الأمانة فلم يتعجل فى المطالبة بحقه ، فإن حقه عائد إليه .

فأبو سفيان مهّد طريق السيادة حتى فى شركه ، بل كان بداية الطريق قيادته لقريش فى قتال رسول الله ﷺ ، فقد قاد قريشًا ضد رسول الله ﷺ فى غزوة أحد وفى الأحزاب ، فلم يكونوا يأخذون رأيًا ولا يقطعون بمشورة دونه .

وبرغم هذا العداء الذى بينه وبين رسول الله ﷺ فى بدء الدعوة ، وذلك التنافس الشديد من أجل الزعامة بين الحيّين بنى هاشم وبنى أمية إلا أن أبا سفيان برغم ما عرف عنه من شدة وغلظة على المسلمين قال كلمة حق أمام هرقل ملك الروم عندما أرسل إليه رسول الله ﷺ دحية الكلبى يدعوه إلى الإسلام وتشاء الصدف أن يكون أبو سفيان عنده . يروى أبو سفيان هذه الواقعة بعد إسلامه فيقول :

انطلقت فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله ﷺ ، فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم ، وكان دحية الكلبى جاء به فدفعه إلى عظيم بصرى

فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل . فقال هرقل :

هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبىّ ؟

قالوا : نعم . فدعيت فى نفر من قريش فوصلنا على هرقل ، فأجلسنا بين يديه . فقال : أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبىّ ؟

فقال أبو سفيان : أنا . فأجلسونى بين يديه ، وأجلسوا أصحابى خلفى ثم دعا بترجمان فقال له : قل لهم إنى سائل عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فإن كذبنى فكذبوه .

فقال أبو سفيان : وايم الله لولا مخافة أن يؤثر علىّ الكذب لكذبت .

ثم قال لترجمانه : سله كيف حسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو حسب .

قال : فهل كان من آبائه ملك ؟

قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا . قال : ومن يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : لا . بل يزيدون . قال : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له ؟

قلت : لا . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم .

قال : فكيف قتالكم إياه ؟

قلت : تكون الحرب بيننا وبينه سجالًا يصيب منا ونصيب منه .

قال : فهل يغدر ؟

قلت : لا . ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها . فوالله ما أمكننى من كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه .

قال : فهل قال هذا القول أحد قبله ؟

قلت : لا .

سأل الترجمان : قل له إننى سألتك عن حسبه قلت إنه فيكم ذو حسب . وكذلك الرسل ترسل فى أحساب قومها ، وسألتك هل كان فى آبائه ملك فزعمت أن لا . فقلت لو كان من آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك آبائه .

وسألتك عن أتباعه ضعفاء الناس أم أشرافهم فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فقد عرفت أنه لم يكن ليدعى الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله .

وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سخطة له فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب .

وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم .

وسألتك هل قاتلتموه فتكون الحرب بينكم سجالًا ينال منكم وتنالون منه قلت : نعم .

وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ويكون بهم قوة .

وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا . فقلت : لو قال أحد هذا القول قبله قلت رجل ائتم بقول رجل قبله .

ثم قال هرقل : ما أمَرَكُم به ؟

قلت : يأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف .

قال : إن يكن ما تقول فيه حقًا فإنه نبىّ ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم ولو أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وليبلغن ملكه ما تحت قدمَىّ .!

★ ★ ★

(٨)

نشأ معاوية بين أب لا يعطى مما يكسب وينمى ما فى يده وإن كان قليلًا حتى يصل به إلى مشتهاه . فقد وضح من حياته أنه طوع التجارة للسيادة والزعامة وطوع جاهه وزعامته للتجارة برغم ما بينهما من بون شاسع إلا أنه لم يخفق إذ لم يكن له مندوحة من أن يعطى لكليهما قدرهما ، فقد كان عزيزًا عليه أن يخسر هذا أو ذاك ، كل شىء عنده ليس له مقياس عنده إلا للملك والجاه ، فها هو يقف مع العباس بن عبد المطلب إبان فتح مكة ، يقفان على رابية عالية ينظران إلى جيوش المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ وهى تعبر من أمامه كتائب كتائب فيقول للعباس عم النبىّ :

لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا .!

فيقول له العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان .

فيقول : نعم .. إذن !

كل شىء عنده بمقياس الجاه والملك ، ولكن أيفوته شىء مما يظنه ملكًا أتى لمحمد برغم أنف أبى سفيان ؟!

فها هو يذهب لمحمد ﷺ ، فلربما وصل إليه شيء من تلك الأبهة التى يراها ملكًا ، إنه لا يعرف الخسارة ولم يجربها قط فى حياته ، فيذهب مع العباس إلى رسول الله ﷺ ليأخذ شيئًا فإذا النبى الكريم ﷺ الذى يفهم ما تنطوى عليه نفس أبى سفيان يقول له :

من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن .!

جعل له رسول الله ﷺ جاهًا وسمعة وحصنًا ، أما هند أمّ معاوية فكانت على النقيض من زوجها ومن أبيها عتبه ، كانت كما أسلفنا تحب بقلبها وتنساق وراء عواطفها ، وكان من العسير عليها أن تستسلم أمام محمد ﷺ ، وقد أتى لهم بما لا قبل لهم به من القوة والعدة ، ولا من السهل عليها أن تترك عقيدتها القديمة وتستبدلها بالإيمان الذى لم يتراء لعينيها إلا بعد حين ، فأهدر رسول الله ﷺ دمها بعد فتح مكة .!

ولم تكن هند هى المرأة الوحيدة التى أهدر رسول الله ﷺ دمها فقد كان معها ثلاثة غيرها من النسوة وبعض من الرجال أيضًا ، لم يدخلوا فى دين الله كما دخل الناس جميعًا فأمر الرسول ﷺ بقتلهم لأنهم آذوا النبي ﷺ والمسلمين .

أما الرجال فهم : عكرمة بن أبى جهل ، وهبار بن الأسود ، وعبد الله بن سعد بن أبى السّرح ، ومقيس بن صبابة الليثى ، والحويرث بن نفيذ بن وهب ، وعبد الله بن هلال بن خطل الأدرمىّ .

وأما النسوة الأربع فكن :

هند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمرو بن هشام ، وفرتنى ، وقريبة .

أما عكرمة فإنه هرب إلى اليمن وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، ثم استأذنت له رسول الله ﷺ فأمنه فخرجت فى طلبه إلى اليمن حتى أتت به رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وصار من قواد المسلمين .

وأما عبد الله بن أبى السرح ، فإنه كان قد أسلم وكان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ فارتد وعاد إلى قريش ، فلما كان يوم الفتح فرّ إلى عثمان بن عفان أخوه فى الرضاعة فأمنه عثمان حتى أتى به رسول الله ﷺ فاستأمنه بعد لأى .

وأما مقيس بن صبابة فإن أخاه هشامًا بن صبابة كان قد صحب رسول الله ﷺ فى غزوة بنى المصطلق فأصابه رجل من الأنصار من رهط عبادة بن الصامت وهو يرى أنه من الأعداء فقتله خطأ وقدم مقيس من مكة إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ وأظهر الإسلام وقال للرسول : يا رسول الله جئتك مسلمًا وجئتك أطلب دية أخى، فأمر له رسول الله ﷺ ، بدية أخيه ثم أقام عند رسول الله ﷺ ، يتحين الفرصة حتى قتل قاتل أخيه وعاد مرتدًا إلى مكة . فأهدر رسول الله ﷺ دمه فقتله رجل من قومه .

وأما الحويرث بن نفيذ ، فقد كان يؤذى رسول الله ﷺ

وحين حمل العباس بن عبد المطلب ابنتى رسول الله ﷺ ، فاطمة وأم كلثوم ـ رضى الله عنهما ـ من مكة إلى المدينة عدا عليهما الحويرث وأفزعهما وأسقطهما على الأرض فأهدر رسول الله ﷺ ، دمه .

وأما عبد الله بن هلال فلقد كان مسلمًا فبعثه رسول الله ﷺ ، للصدقات وكان معه خادم مسلم فأمره عبد الله أن يجهز له الطعام ونام فلما استيقظ وجد الخادم لم يجهز له الطعام فقتله وارتد وعاد إلى مكة .

وأما هبار بن الأسود ، فإنه هرب بعد فتح مكة ، ثم أسلم وحسن إسلامه وعفى عنه رسول الله ﷺ .

وأما النسوة ، فإن فرتنى وقريبة كانتا قينتين لابن خطل تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ ، فقتلت إحداهما وهربت الأخرى ثم استؤمن لها فأمنها رسول الله ﷺ .

وأما سارة ، فقد استأمنوا لها رسول الله ﷺ فأمنها وأسلمت .

وأما هند بنت عتبة فلقد آذت رسول الله ﷺ فى عمه حمزة ولاكت كبده بين أسنانها تشفيًا من الغيظ فلما علم رسول الله ﷺ بذلك قال :

لو استساغتها لم تمسّها النار .

إلا أن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد الذى من أجله أهدر رسول الله ﷺ دمها ، فإن تمسكها بعقيدتها ودفاعها عن

معتقدها بلسانها كان وراء إهدار دمها ، لقد كانت عونًا للمشركين ولزوجها فى يوم أحد ويوم الأحزاب ، فلما فتح الله على رسوله ﷺ مكة وأسلم أبو سفيان وجعل رسول الله ﷺ ، بيته آمنًا هاجت هند على زوجها فأخذت بشاربه وقالت :

اقتلوا هذا الحميت الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم .!

فلما رأت الدنيا من حولها قد أسلمت ولم يبق غيرها هدأت عواطفها واستيقظت تلملم الأحداث ، فأصغت لصوت العقل وتمهلت وأدركت أن الفتح المبين إنما هو فتح للعرب أجمعين وتاريخ مجيد للمسلمين ، فجّرت من ذلك القلب المتحجّر ينبوعًا صافيًا للتطهر منه وتمحو آثامها السالفة فتقصد وهى مرتجفة رسول الله ﷺ ، وتعلن إسلامها .!

ولكن ، هل محا الإسلام كل ضغائن قلبها المتحجر ؟

إنها فى يوم بيعة النساء حين أقبلن يبايعن رسول الله ﷺ ، بالأبطح بمكة ، تكلمت هند فقالت : يا رسول الله ، الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه ، لتسعنى رحمتك يا محمد ، إنى امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله ﷺ . ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة .

فقال لها رسول الله ﷺ : مرحبًا بك .

فقالت : ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلىّ من أن يعزوا من خبائك .

فقال رسول الله ﷺ : وزيادة ، وقرأ عليهن القرآن وبايعهن واشترط عليهن فيما اشترط ، ألا يسرقن ولا يزنين .

فقالت هند :

وهل تزنى الحرة وتسرق يا رسول الله ؟

ولم يعقب على قولها رسول الله ﷺ ، بل قال : ولا تقتلن أولادكن . فقالت :

قد ربيناهم صغارًا وقتلتهم أنت بيدك كبارًا .

كانت ما زالت حديثة عهد بالإسلام قريبة عهد بالجاهلية لم يتغير من طبعها القديم إلا القليل ، لأنها حين أقبلت على رسول الله ﷺ ، ذهبت إليه متخفية متنكرة تعلن إسلامها وما كشفت عن وجهها إلا بعد أن أعلنت إسلامها ليقينها أنها أصبحت آمنة عند رسول الله ﷺ ، فقد كانت تخشى رسول الله ﷺ من ماضيها فى الجاهلية ، و يقول ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة عن إسلامها :

إن هندًا قالت لأبى سفيان ، إنى أريد أن أبايع محمدًا .

فقال لها أبو سفيان : قد رأيتك تكذبين هذا الحديث أمس .

قالت : والله ما رأيت الله عُبد حقّ عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة والله لن يأتوا إلا مصلين .

فقال لها أبو سفيان : فانك قد فعلت ما فعلت ، ولعله يعنى ما كان منها فى حق محمد ﷺ وحق المسلمين ، فاذهبى برجل من قومك معك ، فذهبت إلى عثمان بن عفان وقيل إلى أخيها أبى حذيفة بن عتبة فذهب معها فاستأذن لها فدخلت وهى منقبة .

يتضح لنا من سردنا عن هند وأبى سفيان أنهما كانا من أهل الدنيا ومن العسير ترك ما هما فيه من سيادة وزعامة ويتساويا بالعبيد والطبقات الدنيا وليكن الفضل بينهما التقوى والعمل الصالح وليس بالأحساب والأنساب .

إلا أنها أسلمت وسلمت قيادها للإسلام شأنها شأن زوجها الذى تزعّم قريشًا فى عداء رسول الله ﷺ . وقد حسن إسلام هند . فبعد إسلامها جعلت تضرب صنمًا فى بيتها كانت تعبده بالقدوم حتى كسرته وحطمته وهى تقول : كنا منك فى غرور .!

يتضح لنا من سبق الأفعال والتصرفات أن والدى معاوية دخلا الإسلام بصعوبة وأن الإسلام دخل قلبيهما رويدًا رويدًا وانتهلان منه ما يستسيغانه من ينبوعه الصافى ، وصارا فيما بعد عونًا للإسلام والمسلمين ، ففى موقعة اليرموك التى حضرتها هند مع زوجها أبى سفيان تقف تحرض العرب والمسلمين على قتال الروم كأنها أرادت أن تمسح ما فعلته أيام أحد والأحزاب وأن تستبدل بسيئاتها حسنات .!

فى ظل هذين الأبوين المهتمين بالمجتمع والسيادة والزعامة نشأ معاوية بن أبى سفيان ، تفتح قلبه على هدى أمه وحكمة أبيه ووعى عقله الإسلام وما يدور حوله من أحداث وما مهّد له أبواه من السعادة والزعامة فى الدين الجديد .

فهو من بيت لا يعرف الخمول ولا يعجزه الظهور لأنه

يمتلك أسباب القوة ونياط الزعامة منذ أمد بعيد .

فها هى هند مع ابنها تسقيه من لبان موروثها وتفتح أمامه أبوابًا مغلقة فى علم الغيب ولا تفتأ أن تزكيها فى نفسه ليسمو بعقله على الأحداث وينفذ إلى حيث يريد .

قيل لها يومًا ومعاوية معها « إن عاش ساد قومه ! » :

فتقول هند : « ثكلته إن لم يسد إلا قومه ! » .

عقدت عليه آمالًا كبارًا برغم ما يتراءى لها من سواسية الإسلام وسبق غيره من المجاهدين والأنصار ، فلم ترض له أن يسود قومه بل أنه سيسود أقوامًا غيرهم وأممًا أخرى .

غرست فى روحه حب الإمارة وفن القيادة وبصرته بدروب الحكمة وكيفية الوصول .

بتلك الروح غذته ، وبهذه الهمّة التى لا تعرف الملل ربّته ونمّته .

قدم عليها يومًا من الشام بعد أن ولاه عمر رضى الله عنه إمارتها فدخل على أمه هند فقالت له :

يا بنى إنه قلما ولدت حُرَّة مثلك وقد استعملك هذا الرجل فاعمل بما وافقه أحببت ذلك أم كرهت .!

★ ★ ★

(٩)

« نشأة معاوية »

رأينا كيف أن هندًا كانت وراء ابنها تلقنه فنون الحياة وتبصره بدروب الصبر والحلم والدهاء ، هذا فضلًا عن أبيه الذى عرف بالحكمة والدهاء والحلم .

لقد أعطته أمه درسًا فى فن الإمارة وكيفية الصبر وأن لا يحكم إلا بما يوافق الحاكم وأن يصبر عليه إن لم يوافق رأى الأمير رأيه حتى يثبت أقدامه ويتمرس على القيادة تحت إمرته ثم هى تثبت فى نفسه الطموح والذكاء بأنه قلما تلد حرة مثله .

هذا درس كبير لمعاوية من أمه التى لا ينكر أحد تاريخها فى النضال فلننظر ماذا قال أبو سفيان لابنه حين عاد إليه من الشام .

يذكر الراوى أنه بعد أن خرج معاوية من عند أمه دخل على أبيه فقال له :

« يا بنى إن هذا الرهط من المهاجرين سبقونا وتخلفنا عنهم فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا فصرنا تبعًا وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيمًا من أمرهم فإنك تجرى إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لتنفست فيه ! » .

فيقول معاوية : فعجبت من اتفاقهما فى المعنى على اختلاف فى اللفظ ! .

لقد أصابت هند فى قولها .

وأصاب أبو سفيان فى نصحه لابنه .

فالأم تبث فيه حب الإمارة ، والأب وضح له مركزه من قطب الرحىّ ، وما عليه إن كان مركزه من قطب الرحى بعيدًا إلا أن يتسلل إليه الهوينا مع الصبر حتى يكون فى مركز الدائرة .

يقول لابنه « ولو بلغته لتنفست فيه .!» ، وكأنما كشف الأب له مما تضمره له الأيام .!

هذا فضلًا عن حكمة الأم التى أعطته درسًا مفيدًا فى التعقل ووزن الأمور بميزان حساس دقيق .

فالأم ملأت أحاسيسه بالعظمة وأضافت عليها المزيد من الحكمة والأب فتح له آفاقًا واسعة رحبة الأمل ، فلنر تلك الصورة التى رسمها البلاذرى موضحًا هذا المعنى بتلك القصة .

« شخص أبو سفيان إلى معاوية وهو على الشام بعد يزيد أخيه ومعه عتبة وعنبسة ، فكتبت هند إليه :

« قد قدم عليك أبوك وأخواك ، فاحمل أباك على فرس وأعطه أربعة آلاف درهم ، واحمل عتبة على بغل وأعطه ألفى درهم ، واحمل عنبسة على حمار وأعطه ألف درهم » .

ففعل معاوية فقال أبو سفيان : أشهد أن هذا عن رأى هند !

هو درس آخر جديد من فنون القيادة النابهة وماذاك على هند بكثير . فقد كانت سديدة الرأى راجحة العقل تمتلك المقدرة الفائقة فى الإقناع والتحكم ، وكان أبو سفيان ومعاوية يطيعانها فى مشورتها لا خوفًا من الزوجة المتغطرسة ولا من الأم المتحكمة المتسلطة ، ولكن لسداد رأيها ونفاذ بصيرتها ، لقد علمته أن يعطى ولا يسوى فى العطاء فعتبة أخوه من غير هند ، إنما أمه أموية ، فهى صفية بنت أبى العاصى عمة عثمان ابن عفان ، أما عنبسة فهو أخوه ولكن أمه من دوس .

حنكته بالسياسة وربته على تحمل التبعات ليكون لها أهلًا ، وساعدته الأيام أن جعله الفاروق عمر أميرًا على الشام وهو فى ريعان الشباب فازداد خبرة فى عوده النضرّ .

أيقنت الأم بعلو شأن ابنها وعظم شأنه عند العرب من حسن تصرفه ، فلقد سئلت يومًا عن ابنها معاوية فقالت :

والله لو جمعت قريش من أقطارها ثم رمى به فى وسطها لخرج من أى أعراضها شاء .!

تلك هى الأم ، أما الأب فقد كان معاوية ملاصقًا له لا يفارقه فى الجاهلية وفى عدائه للرسول الكريم ﷺ فتعلم من أبيه تصريف الأمور والحنكة السياسية .

كان معه يوم أحد وهو يخطب فى الناس يحرضهم على القتال ضد محمد ﷺ قائلًا لبنى عبد الدار أصحاب اللواء يوم بدر كما يذكر ابن إسحاق :

يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلو بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهمّوا به وتوعدوا وقالوا :

نحن نسلم إليك لواءنا .! ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع ؟

ولم يكن أبو سفيان يريد اللواء من بنى عبد الدار إنما أراد أن يبث الحماس فيهم ويحرضهم على البذل والفداء .

ذاك أسلوب مبطن بالدهاء وما ذاك عن وعى معاوية ببعيد فإنه قد تتبع أسلوب أبيه وأسلوب أمه فى المحن التى شارك فيها فى الفتنة الكبرى !

رأى معاوية تشبث أبيه بالزعامة حتى مع رسول الله ﷺ الذى يأتيه الوحى من السماء ويمده الله بالملك متى شاء ، فالموضوع عند أبيه موضوع زعامة وليس عقيدة . فها هو يسمع أباه يصيح على عمر بن الخطاب ويقول لعمر :

هلمّ إلىّ يا عمر ، ويقول رسول الله ﷺ لعمر : ائته فانظر ما شأنه ، ويجىء عمر إلى أبى سفيان فيقول أبو سفيان لعمر : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدًا ؟ فيقول عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

فيقول أبو سفيان والحسرة تملأ كيانه : أنت أصدق عندى من ابن قَمّة وكان عبد الله بن قمة قد أشاع فى الناس أن محمدًا ﷺ قد قتل .

هو موقف عنيد من مواقف أبى سفيان يبغى بها السيادة ، فتوعّد محمدًا ﷺ فى العام القادم .

كان يرى فى رسول الله ﷺ عقبة كئودًا لجاهه وسلطانه فإذا ما فرغ منه خلص إليه ذاك الجاه وهذا السلطان ليتوارثه أبناؤه جيلًا بعد جيل ويكون حلم بنى أميه قد تحقق على بنى هاشم فى عهد أبى سفيان ، إنه تاجر ماهر يعرف أين يضع ماله ليكسب ومتى يكون الكساد فقد توعد المسلمين عند منصرفهم من أحد فقال « إن موعدنا بدر من العام القادم » ، ولم يأت إليهم ، فقد خرج رسول الله ﷺ ليلقى أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان فى أهل مكة ليلقى الرسول ﷺ ، وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان كما وعد ، ولكن أبا سفيان وجد أنها تجارة غير رابحة ، فلم يأت لرسول الله ﷺ ، بل أراد بخروجه أن يقال عنه لا أن يقال عليه وفى ذلك يقول شاعر المسلمين عبد الله بن رواحة :

وعدنا أبا سفيان بدرًا فلم نجد
لميعاده صدقًا وما كان وافيا

★ ★ ★

وفى غزوة الخندق حين حفر المسلمون خندقًا حول المدينة للدفاع عنها حين تآمرت الأحزاب على المسلمين ، وكان أبو سفيان من رجالات قريش المعدودين فى تلك الحرب ، خرج إليه نعيم بن مسعود الغطفانى ليخذله ويلقى فى روعه أن اليهود قد نقضوا العهد فصالحوا محمدًا ﷺ ونقضوا

ما بينهم وبين قريش ، وأدرك أبو سفيان الخطر وازداد خوفًا حين أرسل الله عليهم ريحًا شديدة فتكفئ قدور القوم وتمزق خيامهم فيقوم أبو سفيان بين القوم فيقول : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من شدة الفزع ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإنى مرتحل . ثم قام إلى جمله وهو معقول فامتطاه فضربه فوثب به .!

إنه يحب دائمًا أن تكون له الكلمة على قريش فتأتمر بأمره . وتذعن لإرادته فى السلم والحرب ، فيقولون قال أبو سفيان وأمر أبو سفيان .. واليوم وقد رأى تلك الأمانى تتحطم على صخرة الإيمان ، فالذين آمنوا أصبحوا كثرة وأصبحوا قوة لا يستهان بها ، كما أنهم فى تزايد مستمر والكفر فى تناقص مستمر مما كان يقض من مضاجع أبى سفيان ، فتدبر أمره بعد ما نقضت قريش ما كان بينها وبين النبى ﷺ من عهد وميثاق ، فقد رأى أن لا قبل لقريش برسول الله ﷺ ، وأنهم أخطأوا حين نقضوا ذلك العهد الذى كانت مدته عشر سنوات لا يعتدى أى منهما على الآخر ، ويحسّ الرسول الكريم ﷺ ذلك من قريش وينبئ ﷺ قومه بما سيكون من المشركين بعد نقضهم العهد وخوضهم معه هذه الحرب ، وبعد أن قويت شوكته يقول للمسلمين : كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد المدة .

ولقد صدق رسول الله ﷺ ، فلقد خرج رجال من المسلمين ينظرون فإذا هم يلقون أبا سفيان قد بعثت به قريش إلى النبى ﷺ ليزيد فى المدة ويجدد العقد .

ومن لهذا الأمر غير أبى سفيان ، إنه يريد أن تتحدث الناس عنه فى كل مكان وأن تكون له الكلمة والعقد والحل ، ويمضى أبو سفيان فيدخل على ابنته حبيبة أم المؤمنين زوج النبى ﷺ ، فلما أراد أن يجلس على فراش الرسول ﷺ طوته عنه أم حبيبة فقال لها أبو سفيان :

يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى .

فقالت أم حبيبة : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ .

وأحس أبو سفيان بلطمة قوية من ابنته وفلذة كبده وتعجب ، أى حب هذا الذى يحبه الناس لمحمد ﷺ ، ولم يجد ما يقوله لابنته غير أن قال :

والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر .

وتركها وانصرف فى ضيق من تصرفها ، انه يود أن يقابل رسول الله ﷺ ، وحده فليذهب إليه إذن بمفرده فقد فشل وأخفق فى أن يجعل ابنته بينه وبين رسول الله ﷺ ، فلما فقد الثقة فى ابنته فقدها أيضًا فى الناس جميعًا ، وحين تقابل مع رسول الله ﷺ ، وكلمه لم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا .

واختار أبو سفيان ، أيرجع إلى مكة مخذولًا لم يفعل شيئًا وهو السيد المهاب فى قومه ، لقد استبعد هذا الرأى ووطن نفسه على معرفته بأصحاب رسول الله ﷺ لعله يجد عنده مخرجًا ، ذهب إلى أبى بكر الصديق فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ .

فقال أبو بكر : ما أنا بفاعل. فخرج من عنده إلى عمر بن الخطاب فكلمه فى مثل ما كلم به أبا بكر فلم يستجب له عمر وقال :

أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ، فوالله لو لم أجد إلا الذرّ لجاهدتكم به .

وأظلمت الدنيا فى وجه أبى سفيان ، ماذا يفعل وقد ضاقت به السبل ، عندها فكر فى على بن أبى طالب ، إن بينهما قرابة وصلة رحم فدخل عليه وعنده زوجه فاطمة البتول بنت رسول الله ﷺ ، وبين يديهما الحسن والحسين وكانا غلمانًا يدبان على الأرض فقال أبو سفيان :

يا على ، إنك أمسّ القوم بى رحمًا وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبًا فاشفع لى إلى رسول الله .

وأحس علىّ بما فى قلب أبى سفيان فضاق لذلك وازداد ضيقًا ليقينه أن رسول الله ﷺ إذا عزم على شىء فلا يثنيه أحد عنه فقال :

ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

فسقط فى يد أبى سيفان ، كانت كلمات علىٍّ كالصاعقة فذهبت بما تبقى فى عقله من رزانة ، فقال بعد فترة استجمع فيها ما تبعثر من ذهنه :

يا بنية محمد ، هل لك أن تأمرى نبيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

وساوم أبو سفيان على التجارة التى معه كلها بالأجل لعله يتخلص منها حين كسد أمامه السوق . وهنا تقول له سليلة النبوة وكأنها تضيف على هوانه هوانًا وعلى إذلاله إذلالًا وتهون عليه نفسه فتقول له :

والله ما بلغ نبى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ .

وحين سمع ذاك القول من فاطمة رضى الله عنها التفت إلى علىّ فى تشبث الغريق بطوق النجاة وقال :

يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى !

فيقول له علىّ : والله ما أعلم لك شيئًا يغنى عنك شيئًا .

ثم إن عليا قال له حين وجد الضيق والشدة يأخذان بخناقه قال له :

ولكنك يا أبا سفيان سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . فيقول أبوسفيان فى لهفة من لم يعد يعى ما يقول :

أو ترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا ؟!

ويجيبه أبو الحسن وهو يؤكد قلة ثقته بما نصح به فيقول :

لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك .

ويتقدم أبو سفيان فى يأس قاتل فيدخل المسجد ويصيح بين الناس :

أيها الناس ، إنى قد أجرت بين الناس .

ثم ركب بعيره وانطلق يعدو خارجًا من المدينة .

★ ★ ★

(١٠)

لأول مرة يخون أبا سفيان نكاؤه وتخونه حنكته ، فلم يعد يحسب حسبة أو يرى صوابًا ، لقد فعل ما أملاه عليه الإمام علىّ دون أن يعى مغبة الأمر ، لقد أيقن كما أيقن الإمام على أنه لا سبيل أمامه غير ذلك . فلم يخطئ الإمام فى نصحه إياه ، وأبو سفيان لم يخطئ إذا أراد أن ينجو بنفسه من عرين الأسد ، فها هو يلتقى بزعماء قريش فى مكة فيتعلقون به ويسألونه عما حدث قائلين : ما وراءك ؟

وينطق أبو سفيان بحسرة ألمّت بروحه فيقول : جئت محمدًا فكلمته فوالله ماردّ علىّ شيئًا ، ثم جئت ابن أبى قحافة ، فلم أجد فيه خيرًا . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ، ثم جئت عليًا فوجدته أمين القوم وقد أشار علىّ بشىء صنعته فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئًا أم لا .

وتسأله قريش لهفى إلى جواب : وبِمَ أمرك ؟

قال : أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت .

ويسألونه : فهل أجاز لك محمد ؟ فيقول : لا .

وأحسوا أن كبيرهم قد ذل فى المدينة وأن نجمهم صار فى أفول .!

★ ★ ★

(١١)

ويخرج رسول الله ﷺ سرًا من المدينة فى جيش جرار كبير من المهاجرين والأنصار لفتح مكة المكرمة ، وكانت الأخبار قد عميت عن قريش فلم يدروا به إلا وهو محيط بمكة ، ويقال إن أبا سفيان بن حرب وعبد الله بن أمية لقيا رسول الله ﷺ فى مكان بين مكة والمدينة ، فالتمسا الإذن للدخول عليه من أم سلمة فقالت : يا رسول الله ابن عمتك وصهرك .

فأبى رسول الله ﷺ عليهم الدخول وقال لها : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمتى فقد هتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى فى مكة ما قال . وكشف رسول الله ﷺ السبب الذى من أجله لم يأذن لهما ، فقد هجاه أبو سفيان فى مكة هجاءً شديدًا وبلغ رسول الله ﷺ ذلك على لسان المبلغين من الوافدين ، فقد جاء رجل وقال لرسول الله ﷺ : إن أبا سفيان يهجوك .

فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه هجانى وإنى لا أقول الشعر فاهجه عنى .

وسمع ذلك عبد الله بن رواحة فقام إلى النبى ﷺ وقال : يا رسول الله : ايذن لى فيه ؟

فقال رسول الله ﷺ : أنت القائل « ثبت الله ما أتاك من حسن » .

قال ابن رواحة : نعم . فقال الرسول ﷺ : وإياك فثبت الله .

ثم قام إليه كعب بن مالك فقال : يا رسول الله ايذن لى فيه ؟

فقال الرسول ﷺ : أنت القائل « هممت » قال : نعم . فقال النبى ﷺ : لست له .

ثم قام حسان بن ثابت فقال : يا رسول الله ايذن لى فيه ؟

فقال رسول الله ﷺ : أنت له ، اذهب إلى أبى بكر ليخبرك بمثالب القوم ثم اهجهم وجبريل معك . فقام حسان يرد على أبى سفيان فى قصيدة طويلة منها :

ألا أبلغ أبا سفيان عنا ... مغلغلة فقد برح الخفاء
هجوت محمدًا وأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بنـدٌ ... فشرُكما لخيركما الفداء

★ ★ ★

وضاقت الدنيا بأبى سفيان ، أحس أنه فى ضعف وأن الدنيا تخرج من بين يديه وأن الزعامة المنشودة قد فارقته إلى الأبد وأنه أصبح منطويًا على نفسه يجتر مرارة الهزيمة التى تلاحقه يومًا بعد يوم ، وأنه لا سبيل أمامه غير الاعتراف بنبوّة محمد والسير فى ركابه مع المسلمين ، وأن أيام الجاهلية قد ولّت وليس

لها من عودة ولا إياب ، وأن لا سيادة على العرب إلا مع الإسلام ولا زعامة لقريش إلا بالإسلام والتقوى ، وكأنما أراد الله به خيرًا إذ سدّ فى وجهه كل السبل وأوقف له سوء الحظ عند كل منعرج حتى كاد يفقد صوابه وهو الحليم الصبور فقال يائسًا لأم سلمة زوج الرسول الكريم ﷺ : يا أم سلمة والله ليأذن لى أو لآخذن بيدى بنى هذا ثم لنذهبنّ فى الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا .

فأخبرت أم سلمة رسول الله ﷺ فأيقن أن أبا سفيان سيبرّ بقسمه إن لم يأذن له ، فأشفق عليه وأخذته به رحمة ولان له بعد شدة فأذن له رسول الله ﷺ ذو الخلق العظيم ، فدخل أبو سفيان ومعه عبد الله بن أميه فأسلما أمام رسول الله ﷺ .

وهناك رواية أخرى عن إسلام أبى سفيان وفى كلتا الروايتين ما يغنى الباحثين من أن أبا سفيان لم يسلم تسليم اليقين الذى طرق قلبه فجأة ، ولكن إسلام من ضعفت قوته وخارت حيلته ، هو هو إسلام التاجر الذى كسدت بضاعته . وأيقن بعد حساب وتدبر أنه لا حيلة له غير هذا الطريق ، فكان إسلامه ضربًا من التسليم .

ففى هذه الرواية أنه لما نزل رسول الله ﷺ ـ مرّ الظهران ـ قال العباس بن عبد المطلب : وا صباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله ﷺ قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش ، إلى آخر الدهر .

وخرج العباس على البيضاء وهى (بغلة) رسول الله ﷺ فى الطريق إلى مكة علّه يجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة فيأتى مكة فيخبر أهلها بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه يستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة .

وهكذا نرى العباس رضى الله عنه قد أحب دينه وأحب أهله إنه يعلم وهو عم رسول الله الكريم ﷺ حب محمد لأهله فأراد أن يجتمع الحب مع الإسلام فى مكة ، كان العباس يرى أن تدخل مكة فى دين الله بلا حرب خير من أن يدخلها رسول الله ﷺ بالقوة ، أما الذين لم يدخل الإيمان فى قلوبهم فلسوف يهتدون مع الأيام عندما لا يجدون أمامهم غير الإيمان ، وبينما وهو فى سعيه إذ سمع صوت أبى سفيان يحدّث بديل بن ورقاء حيث خرجا يتحسسان جيش المسلمين ، سمع أبا سفيان يقول لبديل : ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكر . ويقول له بديل : هذه والله خزاعة وقد حمستها الحرب . ويقول له أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها أو عسكرها .

ويقول العباس ، تعرفت صوته ـ يعنى أبا سفيان ـ فقلت : يا أبا حنظلة .

وعرف أبو سفيان صوت العباس وقال : أبو الفضل ؟ فقال العباس : نعم .

فقال أبو سفيان : مالك فداء أبى وأمى . فقال العباس :

ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، وا صباح قريش والله .

وكأنما أراد العباس أن يهز كبرياءه ، فأدخل فى روعه الرعب ليزيده رهبة من الموقف الخطير ليسلم أبو سفيان ، واستطرد العباس وكان صاحبا لأبى سفيان يعلم دخيلته أكثر من علانيته إذ قال :

والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك .

وما كان أبو سفيان فى حاجة لتكرار العباس له ، إذ لم يكن أمامه غير أن يطيع ويستسلم للعباس ، وجاء العباس إلى خيام المسلمين وكان كلما مرّ بنار من نيرانهم تساءلوا : من هذا ؟ فإذا رأوا (بغلة) رسول الله ﷺ والعباس عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته .

حتى مرّ العباس بنار عمر بن الخطاب وحين رآه عمر قال :

من هذا ؟ وقام إلى العباس ، وحين رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال والعجب يملؤه : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد .

كان أبو سفيان عند المسلمين هو القوة المحركة لقريش ويعلمون أنه هو الذى ألّب عليهم قريشا لأنه سيدهم المطاع ، فلا تقوم حرب إلا بمشورته ورأيه ولا عهد ولا ميثاق إلا

بإرادته . فهو الذى هجا رسول الله ﷺ وهو الذى ناصبه العداء طوال تلك الحروب ، لذلك لم يأذن له النبى ﷺ فى الدخول عليه ، ومن أجل هذا سعى أبو سفيان سعيه الحثيث ليؤمن نفسه وليؤمن قومه حين رأى أن شوكته قد تحطمت وأن رسول الله ﷺ غالب لا محالة بمشيئة الله .

سعى عمر بن الخطاب يعدو إلى رسول الله ﷺ يريد أن يسبق العباس وأبا سفيان فقد احتشد المسلمون يودون إيذاء أبى سفيان والعباس يحث خطاه ليلحق بالنبى الرحيم ﷺ لينجو بأبى سفيان ، وسبق العباس عمر وإذا هو قبله بقليل عند رسول الله ﷺ وإذا عمر فى إثره ، ولكن عمر يسبق العباس فى الكلام فيقول : يا رسول الله هذا أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلأضرب عنقه .

عبّر عمر عن رأيه الصريح فإذا رأيه يتفق مع شدته فى الحق وما نظن المسلمين آنذاك إلا كانوا عند رأيه ومع شدته فى أبى سفيان .

أما العباس رضى الله عنه فقد كان كيّسًا فطنًا يرى غير رأى عمر والمسلمين ، يرى أن يُبقى على حياة أبى سفيان ليضمد جرح قريش بإسلامه ، أما قتله فى ذلك الوقت فقد يثير العداء ويؤخر إسلام مكة إلى حين .

ويرى العباس رسول الله ﷺ غير مصغ إليه ، ويخاف أن يغلبه عمر فى رأيه عند الرسول ﷺ ، فيجلس إلى الرسول

الكريم ﷺ ويأخذ برأسه ، ولكن عمر كان ملحًا فى طلبه حريصًا على قتل أبى سفيان ، وهنا تتحرك حفيظة العباس ، إنه يعلم أن أبا سفيان لا يمت له بقرابة ، وأن أبا سفيان قريب له وللنبى ﷺ ، فكأن العباس لم يجد ما يحفظ به دماء أبى سفيان غير هذه القرابة والرحم فقال فى حدة لعله يستدر عطف رسول الله ﷺ ، قال :

مهلًا يا عمر فوالله لو كان من بنى عدى بن كعب ماقلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف .

قال العباس ذلك وإن كان يعلم أن الذى قاله لم يخطر قط على قلب عمر الذى لا يعرف فى الحق غير الله ورسوله ، فعمر كان يحب أهله فى الجاهلية فكان من أجلهم شديد البطش بالمسلمين ، وحين أسلم واطمأن قلبه للإيمان لم يعد لديه حب يملأ قلبه غير حب الله ورسوله ﷺ ، أما العباس فبرغم إيمانه كان متعلقًا بأهله وذويه حريص على أن يجمع بين حب الدنيا وحب الآخرة . ولذلك نجد عمر رضى الله عنه فى صراحته الواضحة يقول للعباس :

« مهلًا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلىّ من إسلام الخطاب لو أسلم » .

ويرى رسول الله ﷺ موقف عمر وعمه العباس رضى الله عنهما وهو الذى بعث رحمة للعالمين ، إنه لا يود أن يغضب عمر أو يقهره فى رأيه فإن الحق على لسانه وقلبه ، كما أنه لا يريد أن يكبت رغبة عمه العباس أو يقتل طموحه

فى قلبه ، فإذا برسول الله ﷺ يزن الأمر بميزان النبوة ، فلعل الله أراد أن يهدى أبا سفيان ، فإذا به يسمح للعباس أن يذهب بأبى سفيان ليبيت عنده ليلته فإذا ما أصبح عاد به العباس إليه .

ويعود إليه العباس فى الصباح وكأنما غسل الليل ما كان على قلب أبى سفيان فإذا به يشعر بالأمان والاطمئنان عند رسول الله ﷺ ، وإذا العباس مشرق الوجه لثقته بسماحة وكرم النبى ﷺ ، وإذا رسول الله ﷺ يقول :

« ويحك يا أبا سفيان أما آن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله .!

ويرتجف أبو سفيان حين يسمع ذلك من رسول الله ﷺ إلا أنه قد اطمأن لأن رسول الله ﷺ حتى هذه اللحظة لم ينزع منه السيادة فيقول وهو التاجر الماهر :

بأبى أنت وأمى ، ما أصلحك وما أكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى عنى شيئًا بعد !

أضاف أبو سفيان من صفات النبى ﷺ ما هو خليق بها فهو ينافس رجلًا كريمًا حليمًا موصول الأهل والعشيرة وله من صفات الحسن والفضيلة ما هو أهل له ثم يشهد أن لا إله إلا الله لأن الإله الذى كان يعبده لم يغن عنه مما هو فيه شيئًا ، ولكنه لم يتطرق إلى الرسول ﷺ والرسالة ، ففى هذا الاعتراف سقوط كل زعامته ورياسته وسطوته ، وإذا برسول الله ﷺ يهيئ له من أسباب الإيمان به فيقول له :

يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟!

وضعه رسول الله ﷺ أمام السّهم وتلك التى تصطك منها مسامع أبى سفيان ، أيقرّ بالسيادة والنبوة لمحمد ، تلك النبوة التى لن يدركها فى صراعه بأى حال من الأحوال ، هنالك ينطق أبو سفيان بالصراحة المطلقة فهو لم يكذب أبدًا ولم يتعود الكذب يقول :

بأبى أنت وأمى ، ما أصلحك وما أكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن فى النفس حتى الآن منها شيئًا .

وأحسّ العباس أن أبا سفيان قد وضع رقبته أمام ذبابة السيف فالتفت إلى أبى سفيان فى غضب وقال مهددًا : ويحك ، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك !

وخشى أبو سفيان على حياته ، إنه يعلم أن العباس يسديه النصيحة دائمًا وأن رسول الله ﷺ جدّ لا هزل عنده فإذا به يشهد الشهادتين !

قالها بلسانه ولا يعلم إلا الله ما تنطوى عليه جوارحه ، لقد استسلم الزعيم غير مشروط ، ويحس العباس أن أبا سفيان ذلك الجمل الأنف قد أسلس قيادته لمن يشاء ، وأن ذلك اليوم يوم الفخر فى الإسلام ، فطلب من رسول الله ﷺ أن يعطى لأبى سفيان شيئًا فإذا الرسول الكريم ﷺ يعطى لأبى سفيان ما يفاخر به أمام قومه إذا ما عاد إليهم فقال : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ! ومن أغلق الباب فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن !

هنالك يسرع أبو سفيان إلى قومه فرحًا بما أعطاه رسول الله ﷺ ، إن النبوة إذن لم تبخل عليه بشىء من الزعامة ، كان يظنها فى البداية ملكًا لمحمد فلما أيقن أنها نبوة وأنها تسوس الناس بالعدل وأن رسول الله ﷺ حياه وقرّبه إليه فرح وانطلق إلى قومه يقول :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .

وتسمعه زوجته هند ، وكانت ما زالت مشركة ، إن هذه صورة حية توضح لك أيها القارئ ذلك البيت العبشمى الذى تربى فيه معاوية بن أبى سفيان ، تقول هند وقد أخذت بشاربه : اقتلوا الحميت الأسود الأحمس ، قبح من طليعة قوم .

رأت هند أن زوجها أخفق فيما أسند إليه من قبل قومه وأنه أسلس قيادته لمحمد وتراجع عن زعامته فأخذته بالشدة بل وطلبت أن يقتل أمام عينيها .

ويكتم أبو سفيان غيظه خوفًا على حياته من قريش فيسدى لهم النصيحة دون أن يعبأ بتهديدها فيقول لقومه « ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به » .

ويحس أبو سفيان بنظرات الناس تخترق رأسه دون أن يتحركوا فلا يدرى هل أشفقوا عليه ، أم بغتتهم المفاجأة ، فينطلق من أمامهم بما لديه من مكسب عظيم من

رسول الله ﷺ وهو يقول لهم : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ! » وإذا بهم يصيحون به وهم أشد غضبًا وحنقًا عليه « قاتلك الله وما تغنى عنا دارك » ؟!

ويدرك أبو سفيان لمَ يغضبون عليه بقدر خوفهم على أنفسهم من جيش محمد ﷺ الذى أحاط بمكة فيقول لهم :

ومن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن !

ويدخل جيش رسول الله ﷺ مكة من كل جانب فإذا أكثر الناس فى بيوتهم وفى المسجد وفى بيت أبى سفيان .

ويسألهم رسول الله ﷺ حين جمعهم فى مكة : ماذا تظنوننى فاعلًا بكم ؟.

قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم .

قال ﷺ : اذهبوا فأنتم الطلقاء .!

★ ★ ★

(١٢)

ذاك هو إسلام أبى سفيان الذى ائتلف رسول الله ﷺ قلبه حين أعلن إسلامه بالعطاء ، فكان من المؤلفة قلوبهم بعد حرب هوازن فقد أعطاه رسول الله ﷺ مائة بعير وأعطى ابنه معاوية مائة بعير أخرى ، ليؤلف قلبيهما للإسلام مع غيرهما ويمدَ لهم فى حبل الإيمان مدًا .

ولكن هل اهتدى قلب أبى سفيان لله ورسوله ؟

إننا نسوق إليك هذه القصة التى يرويها ابن إسحاق وحديث أبى سفيان فى هدم اللات ، فإنه لما وفد قوم ثقيف على رسول الله ﷺ ليسلموا ، كان فيما سألوه أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ ذلك ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم ، فسألوه شهرًا واحدًا فأبى عليهم وكانوا يريدون ألا يروعوا قومهم بهدمها قبل أن يدخلوا إلى الإسلام .

وبعث معهم رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة ليهدما أوثانهم ، فخرجا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال : ادخل أنت على قومك . فلما دخل

المغيرة علاها ـ أى اللات ـ يضربها بالمعول وقام قومه بنو معتب دونه أن يرمى أو يصاب .

ويقول ابن إسحاق : ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها « آهاً لك » ، يدل بهاتين الكلمتين على أسفه مما كان من ماضيه .

وجمع المغيرة بعد أن هدم اللات ما لها من الذهب والجزع وأعطاها أبا سفيان وصار هذا فى يد أبى سفيان وبقى عنده إلى أن أمره رسول الله ﷺ أن يدفع منه دينًا كان على عروة فقد قتل فى شىء يتصل باللات .

عرف رسول الله ﷺ حب أبى سفيان للدنيا ، فكان يغدق عليه بالمال والعطاء ، فكأن أبا سفيان اتخذ من الدين وسيلة لدنياه ليصل إلى مبتغاه وما يتمناه ، فيروى البلاذرى : أن أبا سفيان كان على صدقة نجران حين قبض رسول الله ﷺ فقال : من قام بالأمر ؟ فقالوا : أبو بكر . فقال : أبو الفيصل ! إنى لأرى أمرًا لا يسكنه إلا الدم .

كأنه يريدها فتنة تسود فيها بنو أمية لينالوا حظهم من الخلافة ! ويرون أيضًا أنه حين توفى رسول الله ﷺ لقى أبو سفيان رجلًا فى بعض طريقه مقبلًا من المدينة فقال له : مات محمد ؟ قال : نعم . قال : فمن قام مقامه ؟ قال : أبو بكر . قال أبو سفيان : فما فعل المستضعفان علىّ والعباس ؟

قال : جالسين . قال أبو سفيان : أما والله لئن بقيت لهما لأرفعن من أعقابهما . ثم قال : إنى أرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم .

ولما قدم المدينة جعل يطوف فى أزقتها وهو يقول :

بنى هاشم لا تطمع الناس فيكم
ولا سيما فيكم بنى مُرَّة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكم
وليس لها إلا أبو حسن علىّ

★ ★ ★

كان يريدها حربًا بين بنى هاشم والعرب ولكن عليًا والعباس فوتا عليه هذه الفرصة ، كما أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذهب إلى أبى بكر فقال له : إن هذا قد قدم وهو فاعل شرًا فقد كان النبى ﷺ يستألفه على الإسلام فدع له ما بيديه من الصدقة . ففعل أبو بكر ما أشار به عمر فرضى أبو سفيان وبايعه .

ماذا كان يريد أبو سفيان ؟!

إن أغلب الظن أنه كان يريدها لعلىّ أو العباس حتى إذا ما مضى أحدهما فيها قدمًا طلبها لنفسه أو لقومه من بنى أمية فينال ما عجز عنه فى حياة الرسول ﷺ .

فأبو سفيان أسلم وعيناه لم تبرح موقفه من الزعامة ولا من المال إن قدر عليه ، فما زالت فى نفسه بقية من نعرة قبلية

مثله مثل كثير من العرب الذين أسلموا بعد الفتح . فأبو سفيان كان عند وفاة النبى ﷺ قد تعدى السبعين من عمره فقد ولد قبل عام الفيل بعشر سنين ، وكان سنه يقارب سنّ أبى قحافة والد أبى بكر رضى الله عنه الذى كان أيضًا فى نفسه هذه النعرة القديمة . فيروى المؤرخون أن أبا بكر رضى الله عنه بلغه عن أبى سفيان أمر فأحضره إليه وأقبل يصيح عليه ، وسمع ذلك أبو قحافة فتساءل : على من يصيح ابنى ؟ فقيل له على أبى سفيان ، فقال بعد أن دنا من ابنه وهو الخليفة عند ذاك : أعلى أبى سفيان ترفع صوتك ، لقد تعديت طورك ، وجزت مقدارك .!!

ولا تدل مقالة أبى قحافة إلا على مكانة أبى سفيان فى نفوس الناس وفى نفسه ، فقد كان يظن أن السيادة معقودة لصاحبها حتى بعد الإسلام ولم يعلم أن أقربهم لله أتقاهم وأخلصهم للعباد .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يعامل أصحابه بالحسنى ويدنيهم من مجلسه أولهم إسلامًا وأعظمهم إيمانًا وأخلاقًا فها هو ﷺ يستأذن عليه الناس للدخول عليه يومًا وكان منهم أبو سفيان ابن حرب فكان آخر من أذن له بالدخول أبو سفيان ، وحين دخل أبو سفيان على الرسول قال : يا رسول الله ، لقد أذنت للناس قبلى حتى ظننت أن مجارة الخندمة ليؤذن لها قبلى .

فقال رسول الله ﷺ : أما والله إنك والناس لكما قال الأول كل الصيد فى جوف الفرا ـ حمار الوحش ».

ولم يغضبه رسول الله ﷺ فولاه نجران واستعمله على الصلاة والحرب .

من هذا المنطلق حفظ رسول الله ﷺ منزلة أبى سفيان حتى لا يضار بعد وفاته ، فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه اختلف بين يديه معاويه بن أبى سفيان وعمرو بن العاص حين عدا عمرو على معاوية فلطمه ، وحين أمر عمر معاوية أن يقتصّ من عمرو أبى معاوية ذلك حتى يستشار أبوه ، فأرسل عمر إلى أبى سفيان ، فلما أتاه أبو سفيان ألقى له وسادة وقال له : قال رسول الله ﷺ إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه ، ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية .

فقال أبو سفيان وهو يهوّن من هذا الأمر الذى رآه عمر كبيرًا : لهذا بعثت إلىّ ؟ أخوه وابن عمه وقد أتى غير كبير وقد وهبت ذلك له .

كان موقف أبى سفيان فيه بعد سياسى بعيد الغور ، كما أن تصرف معاوية كان به شىء من الدهاء ، فهو أمام أمير المؤمنين ومعه حق القصاص ولكنه يأبى إلا أن يطلع أباه ليتعلم منه كيف يربط ما بينه وبين الناس ، فأعجب عمر من تصرف أبى سفيان ومن ذكاء ابنه إلا أنه لم ينساق وراء ذلك وهو العبقرى الذى لا يخدع ، فعمر كان يعطى لكل ذى حق حقه فلنتأمله فى هذه القصة التى بطلها أبو سفيان . فقد زار أبو سفيان ابنه معاوية والى الشام من قبل عمر بن الخطاب ، فلما رجع من الشام دخل على عمر رضى الله عنه ، وعمر أكثر الناس معرفة بالناس يعرف أن أبا سفيان لن يرجع من

عند ابنه خالى الوفاض فالتفت عمر إلى أبى سفيان يقول له : أجزنا أبا سفيان .

وأبو سفيان رجل ذو باع فى الدهاء فليس من السهل معرفة ما فى يده ولا ما فى نفسه ، فقد كان يرى الأمر غنيمة لمن سبق ومن أدرك أخذ ولا يحب أن يكشف عما نال من ابنه . فقال لعمر : ما أصبنا شيئًا فنجزيك منه .

ولكن عمر ليس بالخبّ ولا الخبّ يخدعه فأخذ من أبى سفيان خاتمه وبعث به إلى هند زوج أبى سفيان وقال للرسول : قل لهند يقول لك أبو سفيان انظرى إلى الخرجين اللذين جئت بهما فأحضريهما . فما لبث عمر أن أتى رسوله بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فطرحهما فى بيت المال .!

وعلى كل فقد ظل أبو سفيان بجاهه العريض وماضيه التليد وبمكانته بين قومه عندما أسلم ، ظل فترة طويلة يجتر الإسلام وينهل منه رويدًا رويدًا بقدر ما تطيق نفسه حتى ارتوى وبذل فى الإسلام كريمتيه ، فقد عنيا له فى موقفه يوم الطائف فى غزوة حنين ، ولا ينسى له التاريخ موقفه يوم اليرموك وقد بلغ به السنّ عتيًّا وهو يعظ الناس مع زوجته هند ويحرضهم على القتال والبذل والفداء ويقول لهم :

« الله الله ، إنكم ذادة العرب ، وأنصار الإسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ! » .

ويخسر أبو سفيان فى تلك الموقعة وهو فى هذه السنّ المتقدمة عينه الأخرى .

تلك حياة أبى سفيان المجاهد الذى ربى معاوية الذى أنشأ دولة بنى أميه .

نعم تلك حياة أبى سفيان الزاخرة بالمواقف الصعبة والأيام العصيبة والمعانى الجليلة ، وقد توفى رحمه الله عن تسعين عامًا قضاها فى الجهاد ضد الإسلام ومعه حتى فقد فيه عينيه ومات سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة ودفن فى البقيع .!

★ ★ ★

(١٣)

« نشأة معاوية وإسلامه »

ولد معاوية بن أبى سفيان سنة عشرين قبل الهجرة بمكة المكرمة ، ولد لأبوين كما مرّ بك سيدين من سادات مكة ، نشأ وترعرع فى ذلك البيت السفيانى الأموى تحت رعاية أمه هند بنت عتبة بن ربيعة ووالده أبى سفيان بن حرب بن أمية .

كان وسيمًا يتوسم فيه وهو صغير السيادة ، وتشع عيناه ببريق الذكاء والدهاء حتى ليخال لكل من رآه أنه سيسود قومه ، وكانت أمه تستصغر عليه تلك السيادة على قومه فتؤكد أنه سيسود العرب وغيرهم من الأمم فى قولتها المشهورة :

« ثكلته أمه إذن إن لم يسد غير قومه » .

وكانت تعده لذلك الشرف حتى وثقت بمقدرته واطمأنت لحيلته فقالت أيضًا وهى التى لا يستعصى عليها أمر قالت حين سئلت عنه :

« والله لو جمعت قريش من أقطارها ثم رمى به فى وسطها لخرج من أى أعراضها شاء » .!

ولقد صدق حدس الأم فى السيادة وفى الحيلة ، فقد تعلم

معاوية القراءة والكتابة صغيرًا فكان من المعدودين فى الإسلام ممن يكتبون ويقرءون ، فكان أحد سبعة عشر يكتبون فى الإسلام وهم : على بن أبى طالب ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبان بن سعيد بن العاص وأخوه خالد ، وأبو حذيفة بن عتبة ، ويزيد بن أبى سفيان ، وحاطب بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، وجهيم بن الصلت .

وكان معاوية برغم صغر سنه يكتب رسائل النبى ﷺ مع العشرة المعنيين بذلك ، وظل يكتب لرسول الله ﷺ إلى أن انتقل لجوار ربه .

كانت نشأته مدللة مرفهة منعمة ، اعتنت به أمه ، واهتم أبوه بتربيته وتعليمه ، فنبغ فى علمه وتمرس على النعيم .

ولقد حدثته نفسه كثيرًا فى أن يسلم قبل عام الفتح الذى أسلمت فيه مكة ولكنه كان يجد صدودًا من أبويه يقول :

« لقد كان أبواى يقولان لى لئن أسلمت لنمنعنك القوت » .

ويقول بعض المؤرخين إنه أسلم يوم عمرة القضاء قبل فتح مكة بسنة ويؤكد ذلك ابن حجر العسقلانى فيروى عن ابن عباس أن معاوية قال : قصرت عن رسول الله ﷺ عند المروة .!

ويغالى بعض المؤرخين السياسيين فيرون أنه أسلم يوم بدر وهذا مستبعد تمامًا لأنه لا يمكن أن يسلم فى ذلك الوقت الذى يتزعم أبواه العداء لرسول الله ﷺ ويكتم إسلامه ست سنين دون أن يكشف أمره منهما .

تزوج معاوية نساءً كثيرات منهن :

ميمونة بنت مجدل بن أنيف الكلبية ، وهى أم ولديه ، يزيد ، وربة الشارق ، ماتت صغيرة .

وفاخته بنت قرظة بن عمرو بن نفيل بن عبد مناف ، فولدت له ابنه عبد الرحمن وكنى به ، ومات صغيرًا ، ثم ولده عبد الله وكان أحمق . ونائلة بنت عمارة الكلابية وكانت آية فى الحسن والجمال ، فيروون أنه لما تزوجها قال لزوجته ميسون ، انظرى إليها ، فنظرت المرأة بعينيها الناصعة فقالت : رأيتها جميلة كاملة ولكنى رأيت تحت سرّتها خالا ليوضعن رأس زوجها فى حجرها . فطلقها معاوية ثم تزوجها حبيب بن مسلمة فطلقها فتزوجها النعمان بن بشير فقتل ووضع رأسه فى حجرها .!

ثم كوة بنت قرظة ، كانت تحت عمر بن الخطاب فلما أراد الهجرة أبت أن تهاجر معه فطلقها فتزوجها معاوية .

وكان له من البنات ، هند ، ورملة ، وصفية ، فزوّج هندًا لعبد الله بن عامر بن شمس ، ورملة ، لعمرو بن عثمان بن عفان ، وصفية لمحمد بن زياد بن أبيه .

أما حياة معاوية فى الجاهلية فهى حياة شاب تابع لأبيه يرى ويسمع ويتأمل ويزن الأمور ، ولم يكن له دور بارز فى الأحداث يذكره التاريخ ولكنه كان له دور بارز بعد إسلامه فى عام الفتح .

كان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ مع زيد بن ثابت ويكتب كتب رسول الله ﷺ إلى العرب ، وكان حسن الخط فصيحًا حليمًا ، ويروى أن رسول الله ﷺ دعا معاوية فقال « اللهم اجعله هاديًا مهديًا » .

ولقد آخى رسول الله ﷺ حين آخى بين المهاجرين والأنصار فآخى بين معاوية والحتات بن يزيد المجاشعى ، فلما مات الحتات ورث معاوية ما ترك ورائة بهذه الأخوة فقال الفرزدق :

أبوك وعمى يا معاوى أورثا
تراثا فيختار التراث أقاربه
فما بال ميراث الحتات أكلته
وميراث حرب جامد لك ذائبه

★ ★ ★

ولقد حارب معاوية بن أبى سفيان بجوار رسول الله ﷺ يوم حنين وأعطاه رسول الله ﷺ مائة بعير وأربعين أوقية ، كما أعطى أباه مثلهما يتألفهما .

وفى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، كان معاوية بجواره يسيره حيث شاء ، وحين ولى أخوه يزيد أمر الشام سار معاوية مع أخيه إلى الشام ، فلما توفى يزيد سنة تسعة عشر من الهجرة استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه مكانه معاوية فمكث بها أميرًا عشرين عامًا ويروون أن عمر قال لأبى سفيان : أحسن الله عزاءك فى يزيد ؟

فقال أبو سفيان : ومن وليت مكانه ؟

وليس هذا بمستغرب من أبى سفيان فقد سأل عمن ولى هذا الأمر بعده دون أن يرد عليه مجاملة العزاء . قال عمر : معاوية .

قال أبو سفيان : وصلتك رحم يا أمير المؤمنين .

وكتب عمر يخبر معاوية أنه واليه على الشام وأن عطاءه ألف دينار فى الشهر ومنذ هذه اللحظة وهو أمير على الشام حتى انتهى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والفاروق عمر كان يتوسم فيه الإمارة ويرى فيه أبهة الأمراء ولكنه كان يخشى عليه الملك فهو من البيت الذى يطمع فيها ، ولقد صدق حدس عمر حين دخل الشام ورأى معاوية فى أبهة الملك قال :

هذا كسرى العرب !. لأن معاوية قد تلقاه فى موكب مهيب عظيم ، فلما دنا منه قال : أنت صاحب الموكب العظيم ؟!

قال معاوية : نعم يا أمير المؤمنين .

قال عمر : مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟

قال معاوية وقد حرج مما ضيق عليه عمر كما أخبرته عنه أمه سابقًا : مع ما يبلغك من ذلك .

قال عمر : ولم تفعل هذا ؟

قال : نحن بأرض جواسيس العدو بها كثيرة فيجب أن نظهر من عزّ السلطان ما نرهبهم به ، فإن أمرتنى فعلت ، وإن نهيتنى انتهيت .

فقال عمر : لئن كان ما قلت حقًا إنه لرأى أريب ، وإن كان باطلًا إنه لخدعة أديب .!

قال معاوية : فمرنى يا أمير المؤمنين .

قال عمر : لا آمرك ولا أنهاك .

وكان بجوار عمر عبد الرحمن بن عوف فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه .

فقال عمر : لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه .

وعمر رضى الله عنه لا يكف عن محاسبة أمير إلا إذا اقتنع بتصرفاته وحكمته فيما يفعل ، فسكوت عمر عن معاوية هو إعجابه بذكائه وحيلته برغم كره عمر للبذخ والإسراف والتعالى والفخر .!

ويرون أن رجلًا ذم معاوية عند عمر فقال عمر : دعونا من ذمّ فتى من قريش من يضحك فى الغضب ، ولا ينال ما عنده إلا على الرضى ، ولا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه .!

لقد جمع عمر رضى الله عنه فى جملته كل صفات معاوية رحمه الله ، فهو يملك المقدرة على الضحك عند الغضب ، ولا يعطى ما عنده إلا برضاه ، ولا بشىء مما فى يده إن أبى إلا من تحت قدميه .

اكتسب صفات كثيرة من أبيه كالحلم والمداورة والسعى

وراء الدنيا وأبو سفيان هو شيخ الأمويين ، ومعاوية فوق هذا وذاك يحمل سلالة بنى أبيه المتوارثة من الأجداد عبر السنين .

أما الثقة بالنفس فقد اكتسبها من أمه هند ، تلك التى حرضت قومها على قتال المسلمين ، فلما أسلمت بايعت رسول الله ﷺ فى جرأة فريدة .

ذكر عمر رضى الله عنه حين طعن لم يرشحه للخلافة ليقينه أنه إن تمكن منها جعل بنى أمية على رءوس العباد ، فاختار من بنى أمية من هم أكثر تجربة منه وأكثر إيمانًا وطواعية للناس ، وإن كان ظن عمر رضى الله عنه أنه سيسود العرب يومًا .

★ ★ ★

(١٤)

« موجز عن الشورى »

لعله من الواجب أن نتكلم عن الشورى ذلك المبدأ الذى أقره عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل استشهاده .

لقد أقر الفاروق مبدأ جديدًا فى الإسلام يعتمد على الشورى لاختيار خليفة جديد للمسلمين ، وكان الذين اختارهم عمر بن الخطاب من المهاجرين من الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض وهم : علىّ ، وعثمان ، والزبير ، وطلحه بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ثم إن الفاروق دعا ابنه عبد الله وقال له : إن اختلف القوم فكن مع الأكثر ، فإن تشاوروا فكن مع الحزب الذى فيه عبد الرحمن بن عوف .

ولا يفوتنا هنا أن الذين اختارهم الفاروق من هؤلاء النفر أن بينهم هاشميين وأمويين ، وأن الفاروق كان أخشى ما يخشاه أن يتعصب علىّ لبنى هاشم إن ولى أمر المسلمين وأن يتعصب عثمان لبنى أمية إن ولى أمر المسلمين .

اجتمع أهل الشورى وطلحة غائب عن المدينة ، وكان صهيب هو الذى يصلى بالناس ، وجاء عمرو بن العاص

والمغيرة بن شعبة فجلسا أمام باب الشورى فلما رآهما سعد حصبهما بالحصىّ وأقامهما من أمام الباب وقال لهما : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا من أهل الشورى .!

وكان عمر رضى الله عنه قد أمر ألا يزيد أمر الشورى على ثلاثة أيام فلما أوشكت الأيام أن تمضى دون إحراز تقدم فى أمر الخلافة قال عبد الرحمن بن عوف : أيكم يخرج منها نفسه ؟ فلم يجبه أحد فقال : فأنا أخلع نفسى منها على أن أولى أفضلكم .

قال عثمان : أنا أول من رضى .

فقال القوم : قد رضينا . وعلىّ ساكت .

فقال عبد الرحمن :

ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال : أعطنى موثقًا لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ولا تألى الأمة نصحًا .

فقال عبد الرحمن : أعطونى مواثيقكم على من بدل وغير ، وأن ترضوا من اخترت لكم وعلىّ ميثاق الله ألا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين نصحًا .

فأخذ منهم ميثاقًا وأعطاهم مثله .

ثم التفت عبد الرحمن لعلى يقول : تقول إنى أحق من حضر لهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وعظيم أثرك فى الدين ولم تبعد من نفسك ولكن ، أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به ؟

قال علىّ : عثمان .

وخلا عبد الرحمن بعثمان فقال له : تقول شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه ولى سابقة وفصل فأين يصرف هذا الأمر عنى ؟ ولكن ، لو لم تحضر أى هؤلاء الرهط تراه أحق بهذا ؟

فقال عثمان : علىّ .

وفى الليلة الأخيرة دعا عبد الرحمن بالزبير وسعد فقال عبد الرحمن للزبير : خلّ بنى عبد مناف وهذا الأمر . فقال الزبير : نصيبى لعلىّ .

ثم قال لسعد : اجعل نصيبك لى . فقال له سعد :

إن اخترت لنفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلىّ أحب إلىّ .

ولكن عبد الرحمن بن عوف كان صادقًا عنها وخلع نفسه منها ولم يعد يعمل لنفسه فى الخلافة كما سبق فقد وضع نفسه حكمًا بين القوم فقال لسعد : قد خلعت نفسى منها على أن أختار ولو لم أفعل لم أردها ، إنى رأيت روضة خضراء كثيرة العشب فدخل فحل ما رأيت أكرم منه فمرّ كأنه لم يلتفت إلى شىء منها حتى جاوزها ولم يعرج ، ودخل بعير يتلوه فاتبع أثره حتى خرج منها ، ثم دخل فحل عبقرى يجرّ خطامه فليلتفت يمينًا وشمالًا ومضى قصد الأولين ، ثم دخل بعير رابع فرتع فى الروضة ولا والله لا أكون الرابع ، ولن يقوم مقام أبى بكر وعمر أحد يرضى الناس عنه .

ثم أرسل عبد الرحمن لعلىّ يدعوه ، فلما حضر ناجاه عبد الرحمن طويلًا ثم خرج علىّ وهو يظن أنه صاحب الأمر .

وأرسل عبد الرحمن إلى عثمان وظلا يتناجيان حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع عبد الرحمن هؤلاء الرهط وبعث إلى من لم يحضر من المهاجرين وأهل الفضل من الأنصار وإلى أمراء الأجناد فاجتمعوا حتى ضاق المسجد بأهله ثم قام فيهم وقال :

أيها الناس ، إن الناس قد أجمعوا أن يرجع أهل الأمصار إلى أمصارهم فأشيروا علىّ ؟

وظهرت العصبية فى رد الناس بين الهاشميين والأمويين ، قام عمار بن ياسر يقول لعبد الرحمن : إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليًا .

ثم قام المقداد بن الأسود الكندى فقال : صدق عمار إن بايعت عليًا .

فوقف عبد الله بن أبى السرح من بنى أمية فقال لعبد الرحمن :

إن أردت ألا يختلف الناس فبايع عثمان .

وقام على إثره عبد الله بن أبى ربيعة فقال : صدقت إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا .

وضج بنو هاشم وبنو أمية ، فقام عمار يصيح فى الناس :

أيها الناس ، إن الله أدبنا بنبيه وأعزنا بدينه فكيف تصرفون هذا الأمر عن أهل بيتكم .؟!

فتصدى له رجل من مخزوم ليقول :

لقد عدوت طورك يا ابن سمية ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها .

وأحس سعد أن الناس على وشك الفتنة فقال :

يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتن الناس .

وهنا دعا عبد الرحمن عليًا وقال له :

عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله ومسيرة الخليفتين من بعده .

فقال علىّ : أرجو أن أفعل فأعمل بقدر علمى وطاقتى .

ثم دعا عبد الرحمن عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فقال عثمان :

نعم .

فما إن أجاب عثمان بما أجاب حتى رفع عبد الرحمن يده ورفع رأسه إلى المسجد وقال : اللهم اسمع واشهد أنى قد جعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان .

ولا يدرى المؤرخون كيف تم هذا الاختيار .؟!

هل رجحت كفة عثمان لأنه أجاب بنعم وأجاب علىّ بقدر طاقته وعلمه على ذلك .؟!

ذاك أمر يحتاج إلى توضيح ، ولقد أشار فيه الإمام علىّ كرم الله وجهه بما يغنينا عن التحليل والتمحيص فقال :

« ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وخرج من المسجد وهو يقول « سيبلغ الكتاب أجله » .

وقال المقداد معقبًا : يا عبد الرحمن ، أما والله لقد تركته وإنه من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون .!

فقال عبد الرحمن : يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين .

فقال المقداد وكأنه ارتاب فى أمره : إن كنت أردت فأثابك الله أجر المحسنين .

وفطن عبد الرحمن إلى ما يرمى إليه فقال : يا مقداد ، اتق الله ، فإنى خائف عليك الفتنة .

ولعل الواضح مما نسوقه فى قصة الشورى أن نبرز ذلك التنافس القديم بين بنى هاشم وبنى أمية ، ولكن ذلك التنافس يلخصه لنا الإمام علىّ فى عرض هذه القصة فيقول :

« إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إليه فتقول :

إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدًا ، وما كانت فى غيرهم تداولوها بينكم . ! » .

ولقد صدق الإمام فى مقاله هذا إلى شوط بعيد . فهذا ما سيتضح لنا من سير الأحداث وكيف أن معاوية بن أبى سفيان أخذ عثمان ركيزة لينال ما يريد ويمهد على دمه ملكه الوطيد ويدعمه بالوراثة لابنه يزيد .!!

★ ★ ★

(١٥)

« غـزوات معـاوية »

إنه من الضرورى فى هذا المقام أن نمرّ على خلافة عثمان رضى الله عنه بالإيجاز لنرى مدى تمكن معاوية من إمارته فى الشام وازدهار تلك الإمارة فى عهد عثمان ازدهارًا جعل معاوية فارس الشام الذى لا بديل له .

فعثمان ذو النورين لم يغير ولم يبدل من سياسته عن نهج أبى بكر وعمر فى اتباعهما لسنن رسول الله ﷺ طوال ست سنوات ، وحين اجتهد بعد ذلك وجدّد لم يجد الآذان الصاغية ولا من يتقبل ذلك التجديد من أصحاب رسول الله ﷺ الذين لم يغب عنهم أثر رسول الله ﷺ ولم يمض غير وقت قريب ، هنالك اضطربت أمور الدولة المترامية الأطراف وبلغ من اضطرابها أن حاصروا الخليفة فى بيته حتى قتلوه ، ولكن الأحداث كانت تسير قبل ذلك الحصار سيرها المعتاد من الفتوحات والاستقرار كسالف عهد الناس فى السلف الأولين .

نشط معاوية فى أول خلافة عثمان فسعى نحو الغزو والفتوحات فبدأ بغزو « الصائفة » حتى بلغ عمورية فى أرض الروم وكان معه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم :

عبادة بن الصامت ، وأبو أيوب الأنصارى ، وأبو ذر ، وشدّاد ابن أوس ، ثم مضى معاوية فى غزوه حتى فتح عسقلان على صلح .

وفى سنة خمسة وعشرين غزا الروم حتى بلغ عمورية ، فوجد الحصون التى بين أنطاكية وطرطوس خالية ، فجعل عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزواته ، ثم غزا بعد ذلك يزيد بن الحرّ العبسى تلك المناطق وأمنها حتى أنطاكية فى أقصى الشمال .

وفى سنة ثمان وعشرين غزا معاوية قبرص ، وكان قبلها قد ألح على عمر رضى الله عنه فى غزو البحر لقرب الروم من حمص وقال له :

« إن قرية من قرى حمص لتسمع نباح كلابهم وصياح دجاجهم . حتى كان ذلك يخلب لبّ عمر ، فكتب إلى عمرو بن العاص يقول له :

« صف لى البحر ، فإن نفسى تنازعنى إليه » ، فكتب إليه عمرو يقول :

« إنى رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والبحر ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرك أزال العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » .

فلما قرأ عمر كتاب عمرو كتب إلى معاوية :

والذى بعث محمدًا ﷺ بالحق ، لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا ، وقد بلغنى أن بحر الشام يشرف على أطول شىء من الأرض ، فكيف

أحمل الجنود على هذا المستصعب ، وبالله لمسلم واحد أحب إلىّ مما حوت الروم » .

وفى زمن عثمان ، رضى الله عنه ، كتب إليه معاوية يستأذنه فى غزو البحر مرارًا ، وعثمان يتهيّب فى بادئ الأمر ، حتى وافق أخيرًا ، وكتب إليه يقول : « لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيّرهم ، فمن اختار الغزوة فاحمله وأعنه .

وما إن أخذ معاوية الإذن ، من أمير المؤمنين ، حتى انطلق يغزو فى البحر فى سبيل الله ، فاستعمل عبد الله بن قيس قائدًا على البحر ، فسار عبد الله بن قيس من الشام إلى قبرص ، وتجهّز معه من مصر جيش بقيادة عبد الله بن سعد ، فاجتمعوا على قبرص ، فصالحهم أهلها على الجزية ، وكانت سبعة آلاف دينار كل عام .

وظل عبد الله بن قيس أميرًا على جيش المسلمين فى البحر حتى غزا خمسين غزوة فى سبيل الله ، ولم يهزم فى أى معركة منها ، إلى أن خرج فى قارب طليعة قومه ، فانتهى إلى مرفأ من أرض الروم فظفروا به فقتلوه .

بهذه الغزوات البحرية استطاع معاوية بن أبى سفيان أن يكون له دور بارز فى ميدان الفتوحات ، وميدان السياسة ، وأن يكون له ذكر عسكرى فى التاريخ .

وحين قامت الفتنة فى المدينة تحت عباءة عبد الله بن سبأ وابن الكواء ، اللذين حرّضا الفقراء على الأغنياء ، وأوغرا صدور الناس من الحاكم ، ونادوا بالرجعة مع من نادى ، لم يتخذ

عثمان ، رضى الله عنه ، حيالهم الشدة فى حينها ، فاتسع نشاطهم فى كل البلدان ، وتبعهم الضعفاء والموالى والعبيد ، ومن يسيرون وراء كل بوق ، فها هو عبد الله بن سبأ وابن السوداء ، وكان يهوديًا وأسلم ، ها هما فى الشام ، فلقى عبد الله أبا ذر الصحابى الجليل ، فقال له « يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية حين يقول : المال مال الله ألا إن كل شىء لله ، كأنه يريد أن يحتجن هذا المال دون الناس ويمحو اسم المسلمين » ؟

أوغر ابن سبأ صدر أبى ذر ، الزاهد التقى ، من معاوية ، فذهب إليه فقال : ما يدعوك أن تسمى مال المسلمين مال الله الساعة ؟

فقال له معاوية : يرحمك الله يا أبا ذر ، ألسنا عباد الله ، والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟!

فقال أبو ذر : فلا تقله .

فقال معاوية : سأقول مال المسلمين .

ولم يكتف ابن السوداء بأبى ذر ، فذهب إلى أبى الدرداء ، فتعلق به ، فذهب به إلى معاوية وقال له : هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر .

إلا أن أبا ذر قد اقتنع بمبدأ ابن السوداء ، فقد كان من طبعه الزهد والتقشف ، فكان يذهب إلى المسلم ويدعوه ألا يكون فى بيته غير قوت يومه وليلته ، أو بشىء سينفقه فى سبيل الله ، أو يعده لطعام الناس ، وكان يفسّر ظاهرة الآية القرآنية ﴿ **الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ كان يفسّرها من ظاهرها .

وكان أبو ذر يخطب فى أغنياء الناس وأثريائهم فى الشام فيقول لهم : « يا معشر الأغنياء ، يا أسواء الفقراء ، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تُكْوَى بها جباههم وظهورهم » .

والتف حوله الفقراء .

شكاه الأغنياء إلى معاوية ، فأرسل إليه بألف دينار فى جنح الليل ، فأنفقها أبو ذر .

وكانت هذه حيلة من حيل معاوية التى تذكرنا بأبيه ، فإنه لما أصبح الصباح دعا رسوله الذى أرسله إلى أبى ذر وقال له :

اذهب إلى أبى ذر وقل له : أنقذ جسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلنى إلى غيرك وإنى أخطأت بك .

ففعل الرسول ما أمره به معاوية ، وذهب إلى أبى ذر وقال له ما قال له معاوية ، فقال أبو ذر : يا بنى ، قل له والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن أخّرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها .

وكتب معاوية إلى عثمان ، وقص له ما حدث ، فكتب إليه عثمان :

« إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ، ولم يبق إلا أن تثب فجهّز أبا ذر إلىّ وابعث معه دليلًا وزوّده وأرفق به » .

ولكن معاوية أرسله على قتب بعير ، ولم يرفق به ولم يخرجه كما يريد عثمان .

فلما قدم على عثمان قال له : ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك ؟

فأخبره أبو ذر . فقال عثمان : يا أبا ذر ، علىّ أن أقضى ما علىّ وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد ، وما علىّ أن أجبرهم على الزهد .

فقال أبو ذر : لا ترضوا من الأغنياء حتى يبذلوا المعروف ويحسنوا إلى الجيران ويصلوا القربات .

فقال كعب الأحبار وكان جالسًا : من أدّى الفريضة فقد قضى ما عليه .

فضربه أبو ذر فى رأسه فشجه .

وقيل إن عثمان أوصى غلمانه بضرب أبى ذر ، ولكننا نستبعد هذا التصرف من عثمان الحليم ، ثم إن أبا ذر طلب من عثمان أن يغادر المدينة ، فسمح له عثمان ، فكان مقره فى « الربذة » وظل بها حتى توفاه الله .

وفى عام إحدى وثلاثين كانت غزوة الأساورة ، وكان على المسلمين معاوية بن أبى سفيان ، بعد أن جمع له عثمان جيشًا آخر يمده به ، بعد أن جمع له قسطنطين ملك الروم جيشًا كبيرًا فى البحر ، فأمّر معاوية عبد الله بن سعد على الجيش ، وكانت الريح على المسلمين ، فأرسل المسلمون والروم سفنهم ، فلما سكنت الريح ، قال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم ، فباتوا ليلتهم ، فلما كان الغد اقتربت سفن المسلمين من سفن الروم ،

ودار بينهم قتال شديد ، قتل فيه عدد كبير من المسلمين ، وأعداد أكثر من الروم ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم قسطنطين بمن معه .

وفى سنة ثلاث وثلاثين خرج معاوية غازيًا ، فقصد « حصن المرأة » من أرض الروم ناحية ملاطية ففتح الله عليه .

وهكذا كان لا يخرج من حرب حتى يعد نفسه لحرب أخرى ، وكان عثمان يمده بالمدد ، ويشجعه على الفتوحات وعلى البحر الذى سقطت هيبته فى عين معاوية .

من هذا المنطلق ، أحب عثمان معاوية ، برغم تعدد الأمراء عنده فى كل الأمصار ، ولكنه كان يعلم أن معاوية يخرج من الصعب إلى السّهل ، فاستعان به على ما يقلقه فى خلافته ، ففى هذه الرواية التى يقصها علينا الطبرى ، نرى كيف كان عثمان يثق بمعاوية ثقة كاملة ، فقد كان يرى أنه أموىّ من شعر رأسه حتى أخمص قدميه . يقول الطبرى : إنه كان وجوه أهل الكوفة يسمرون عند واليهم سعيد بن العاص ، وكان من هؤلاء الوجوه مالك بن كعب الأرحبى ، والأسود بن يزيد ، وعلقمة ابن قيس ، ومالك الأشتر . ولعلنا نذكر هذه الأسماء ليرى القارئ أنهم انضموا بعد ذلك إلى جيش الإمام على .

قال لهم سعيد : إنما هذا الوادى بستان قريش .

فقال الأشتر : أتزعم أن الوادى الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا لك ولقومك ؟!

وتكلم القوم معه ، فقال عبد الرحمن الأسدى ـ وكان كبير شرطة سعيد ـ : أتردون على الأمير مقالته . وأغلظ لهم . فقال الأشتر : من هاهنا لا يفوتنكم الرجل ، فوثبوا عليه فوطئوه وطئًا شديدًا ، حتى غشى عليه ، ثم جرُّوه برجله .

فمنع سعيد هؤلاء أن يسمروا عنده ، فجعلوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان وسعيدًا وأشراف أهل الكوفة ، واجتمع إليهم الناس حتى كثروا ، فكتب سعيد وأشراف أهل الكوفة إلى عثمان فى إخراجهم ، فكتب إليهم عثمان أن يلحقوهم بمعاوية ، وكتب إلى معاوية : « إن نفرًا قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم ، فإن آنست منهم رشدًا ، فأقبل ، وإن أعيوك فارددهم علىّ ».

فلما قدموا على معاوية ، رحّب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم ، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجرى عليهم فى العراق ، وجعل لا يزال يتغذى ويتعشى معهم فقال لهم يومًا :

إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم ، وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشًا ، وأن قريشًا لو لم تكن ، عدتم أذلة كما كنتم ، إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنّة ، فلا تشذوا عن جنتكم ، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ، ويحتملون منكم المئونة ، والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بما يسومكم ، ثم لا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد موتكم .

فقال رجل من القوم :

أما ما ذكرت من قريش ، فإنها لم تكن أكثر العرب ، ولا أمنعها فى الجاهلية فتخوّفنا ، وأما ما ذكرت من الجنة ، فإن الجنة إذا احترقت خلص الثياب .

فقال معاوية : عرفتكم الآن ، علمت أن الذى أغراكم على هذا قلة العقول ، وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلًا ، أعظيم عليك أمر الإسلام وأذكرك به وتذكرنى الجاهلية ، أخزى الله أقوامًا ما أعظموا أمركم .

ودار نقاش طويل بين معاوية ومعهم ، ولعل معاوية كان يتغذى معهم ليعرف خبرهم ويوقعهم فى شرّ أعمالهم ، أو لعله أراد أن يتخلص منهم ليخلص له الشام بالولاء قبل أن يستفحل أمرهم ويتبعهم الناس ، فكتب إلى عثمان كتابًا يذكره فيه بخبر القوم جاء فيه :

إنه قدم علىّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أثقلهم الإسلام ، وأضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشىء ، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همّهم الفتنة ، وأقوال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم ، وليسوا بالذين ينكرون أحدًا إلا مع غيرهم ، فإنه سعيد ، ومن قبله عنهم ، فإنهم ليسوا أكثر من شغب أو نكير .!

ثم إن القوم خرجوا من دمشق ولم يعودوا إلى الكوفة ، فاتجهوا إلى الجزيرة ، فلما علم معاوية بأمرهم ، أنهم متجهون

إلى حمص ، أوصى بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، والى حمص .

وإننا نسوق هذه القصة وغيرها الكثير ، لنرى أن عثمان رضى الله عنه كان يعتمد على معاوية فى كل أموره ، إلا أن الأمور قد ساءت فى المدينة عند عثمان ، وخاصة عندما نبذ أبو ذر فى الربذه .

كثر الضجيج واللغو فى المدينة ، وفى كل مكان يتشاكون سيرة عثمان رضى الله عنه وتغييره وتبديله ، عما عرف الناس من سيرة الشيخين : الصدّيق والفاروق ، رضى الله عنهما .

لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يقف مع عثمان فى هذه المحنة إلا القليل ، مثل زيد بن ثابت ، وحسان ابن ثابت ، وأبو أسعد الساعدى ، وكعب بن مالك ، إلا أن المهاجرين هرولوا إلى الإمام على ، كرم الله وجهه ، يسألونه أن يكلم عثمان ويعظه ، فقد أعطى بنى أميه الإمارة والقطائع والقصور وأسبغ عليهم الهبات والعطاءات ، فذهب إليه الإمام على فقال له :

« إن الناس ورائى قد كلمونى فى أمرك ، والله ما أدرى ما أقول لك ، ما أعرّفك شيئًا تجهله ، ولا أدلّك على أمر لا تعرفه . وإنك لتعلم ما نعلم ، وما سبقناك إلى شىء فنخبرك عنه ، لقد صحبت رسول الله ﷺ كما صحبنا ، وسمعت ورأيت مثل ما سمعنا ورأينا ، وما ابن أبى قحافة وابن الخطاب بأولى بالحق منك ، ولأنت أقرب إلى رسول الله ﷺ رحمًا

ولقد نلت من صهره مالم ينالا . فالله الله فى نفسك ، فإنك لا تبصر من عمى ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح للسير ، وإن أعلام الدين لقائمة ، واعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله : إمام عادل هُدى وهَدى ، فأقام سنّة معلومة ، وأمات بدعة متروكة ، فوالله إن كلًا لبيّن ، وإن السنن القائمة لها أعلام ، وإن البدع القائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله ، إمام جائر ، ضلّ وأضل ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس من نصير ولا عاذر ، فيلقى فى جهنم ، فيدور فى قعرها ، كما تدور الرحى ، ثم يرتطم فى غمرة جهنم ، وإنى أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذى يقتل ، فيفتح عليه القتل إلى يوم القيامة . ويلبّس أمورها عليها ويتركها شيعًا ، لا يبصرون الحق لعلو الباطل ، يموجون فيها موجًا ، ويمرجون فيها مرجًا .!

كلمة كلها وفاء وإخلاص ، وعظة بليغة ما إن سمعها أمير المؤمنين ، عثمان الطيب ذو الحياء الجمّ ، حتى قال :

« قد علمت والله لا يقولن الذى قلت - أى أنه ظنّ أن المهاجرين قالوا له ذلك - ثم استطرد عثمان متلاطفًا :

أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسلمتك ، ولا عميت عليك ، وما جئت منكرًا إن وصلت رحمًا ، وسددت خلة ، وآويت طائعًا ، ووليت شبيهًا بما كان عمر يولّى ، أنشدك الله يا علىّ ألم يولّ عمر المغيرة بن شعبة وليّى هناك ؟

فقال علىّ : نعم . ولكن عمر كان يطأ على صماخ من ولى ، وإن بلغه عنه انحراف جلبه ، ثم بلغ به أقصى العقوبة وأنت لا تفعل ، ضعفت ورققت على أقربائك .

فقال عثمان : وهم أقرباؤك أيضًا .

فقال علىّ : أجل ، إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم .

فقال عثمان : هل تعلم أن عمر ولّى معاوية ، فقد وليته

فقال علىّ : أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف لعمر من يرفأ غلامه له ؟

فقال عثمان : نعم .

ولسنا هنا فى صدد موقف علىّ ، رضى الله عنه ، من عثمان ذى النورين ، ولكننا نبيّن فى هذا المقام موقف معاوية من حصار عثمان ، فموقف معاوية يؤخذ عليه ، فقد كان فى إمكانه أن ينقذ الخليفة المحصور بين جدران بيته ، لو أنه أراد ، ولكنه كان شأنه كشأن عمرو بن العاص ، الذى اعتزل المدينة حين عزله عثمان ، وخرج إلى منزله بفلسطين ، فكان يقول :

والله إن كنت لألقى الراعى فأحرضه عليه .

وأما معاوية فقد كان يعلم أن عثمان لن ينجو من هذا الحصار وأن نهايته فيه ، فانتظر الخبر بقتله ، فيسود المسلمين فتنة وغوغاء فينفذ منها إلى لبّها ، فيدرك منها ما فاته من الخلافة .

أما قتل عثمان رضى الله عنه فتلك مأساة طويلة لا مجال للحديث عنها ، فقد بيّنّاها فى كتاب عثمان ، إنما نحن بصدد أعمال معاوية ، والخليفة محصور ، لا يجد من ينصره حتى تسور الثوار عليه الدار ، فقتلوه مع زوجته نائلة وهو يقرأ القرآن .!!

★ ★ ★

(١٦)

« معاوية والفتنة »

إن المستقرئ للأحداث السريعة التى ألمّت بالمسلمين وأحاطتهم بالفتنة الكبرى ، ليدرك إدراكًا كاملًا ، كيف أن الفتنة سرت فى نفوس الناس وأفئدتهم ، وأطارت بصوابهم ، فانطلقت قلوبهم من عقال التقوى إلى ذلك الشر المستطير .

لقد كان عثمان ، رضى الله عنه ، ذو الحياء العظيم ، والحلم الكبير ، كان فى غنًى عن هذا كله ، ولا يستحق تلك النهاية المحزنة ، التى فتحت على المسلمين القتل والقتال ، إلى يوم يبعثون .

تزعّم تلك الاضطرابات وتلك الضوضاء ، مجموعة من الناس ، لا يعنيهم أمر الأمة ولا المسلمين ، فهيئوا لهم فتنة يصبح الحليم فيها حيران ، ويمسى فيها المؤمن كافرًا ، ويصبح الكافر مؤمنًا .

ولقد نادى عبد الله بن الكواء وابن سبأ ، بالرجعة ودعوا بدعوى الجاهلية ، وسار خلفهم المنافقون من يهود المدينة .

ولقد تشعبت الآراء واختلفت المشارب حيال الفوضى ، وعجز العقلاء أن يردوها إلى عقالها ، أو أن يقضوا عليها

فى مهدها ، فلقد كانت فتنة عمياء ، خلصت بليَّتها ، وعمت رزيتها ، فلم ينج منها أحد ، إلا النذر القليل .

ولكننا نود أن نرى موقف معاوية من تلك الفتنة .

أكان يريدها سبيلًا للوصول إلى هدفه فى الخلافة ، أم أنه اتخذ منها منفذًا للوصول سريعًا إلى مبتغاه ؟!

إن معاوية ليدرك تمامًا أن الخليفة أموىّ عشمى ، من نفس بيت معاوية ، وأنه أصبح على الساحة السياسية غير خامل ولا مجهول ، إلا أنه يعلم علم اليقين أن ثمة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ وبعض الأقرباء ذوو الرحم، ما زالوا على قيد الحياة ، ينظرون إليها نظرة المترقب الحذر ، فأنَّى له أن يدرك ذلك ، وهو ابن المنافس الأول فى الجاهلية والإسلام على صدر الزعامة ، إلا أن الأمور كانت توزن عند معاوية بميزان آخر ، فهو يطرق على الحديد برفق حتى يلين له ، فالأناة سبيله ، والهوادة طريقه ، والحيلة ديدنه .

فحين التف الثائرون بعثمان جهَّز معاوية جيشًا ، وتحرك به نحو المدينة ، فأخذ الحادى يرجز شعرًا قائلًا :

لقد علمت ضوامر المطىّ وضمرات عوج القسى
أن الأمير بعده علىّ وفى الزبير خلف رضىّ
وطلحة الحامى لها ولىّ

★ ★ ★

فيصيح به رجل من رجالات معاوية قائلًا :

كذبت ، بل يلى بعده صاحب البغلة الشهباء - يعنى معاوية - وهذا يدل على أن معاوية قد مهَّد لها فى الشام الذى ظل واليا عليه قرابة عشرين عامًا .

ولكنه كيف يدرك ذلك ؟!

لاشك أن معاوية لا تعييه الحيلة ، ولا تنضب منه الأحابيل ، إنه يطمع فيها حقًّا مما دلت عليه الأحداث ، ففى أواخر أيام عثمان ، رضى الله عنه ، دعا إليه عليًّا وطلحة والزبير ، وكان معاوية عنده ، وعندما حضر هؤلاء ، قام معاوية فحمد الله ، ثم قال :

« أنتم أصحاب رسول الله ﷺ وخيرته من خلقه ، وولاة أمر هذه الأمة ، لا يطمع فيه أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم عن غير غلبة ولا مطمع ، وقد كبر وولى عمره ، ولو انتظرتم به الهرم لكان قريبًا ، مع أنى أرجو أن يكون أكرم على الله أن يبلغه ذلك ، وقد خشيت مقالة خفتها عليكم ، فما عتبتم فيه من شىء فهذه يدى لكم به ، ولا تطمعوا الناس فى أمركم ، فوالله إن طمعوا فيه ، لا رأيتم منه أبدًا إلا الإدبار » .

ولقد كان موقف معاوية يثير الدهشة للحاضرين ، فهو يتحدث باسم عثمان ، ويتحدث كأنه ولى عهده ، ويتحدث عن الخلافة ، وعن الحرب بأسلوب ينم عن شىء كثير .

لقد كان يمهد للخلافة ويطرق عليها بالهوادة ، فهو ينتظرها ، ولو بعد الإمام علىّ ، كرم الله وجهه .

لقد رد عليه الإمام علىّ فى عنف قائلًا له بعد مقالته :

مالك ولذاك لا أم لك .

ويرد عليه معاوية : دع أمى فإنها ليست بشر أمهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبى ﷺ وأجبنى عما أقول لك .

وهنا يقف عثمان بجوار معاوية فيقول :

صدق ابن أخى ، أنا أخبركم عما ولّيت ، إن صاحبىّ اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ، ومن كان فيهما بسبيل احتساب وأن رسول الله ﷺ كان يعطى قرابته ، وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة معاش فبسطت يدى فى شىء من ذلك المال ، لما أقوم به فيه ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه فأمرى لأمركم تبع .

وصبر الحاضرون على الخليفة ، ولكن معاوية قد نجح فى إذكاء رأيه ، وأن نفوس العامة قد دخلت الفتنة ، وأنها لا بد لها أن تبلغ غايتها المرجوّة ، فيسير عليك أن تستميل قلوب الخاصة ، بما يستميل به قلوب العامة .

من أجل ذلك قال لعثمان :

اخرج معى إلى الشام ، فإنهم أهل طاعة قبل أن يهجم عليك ما لا قبل لك به .

وكأنما أراد معاوية أن ينتهى اجل عمه فى الشام ، فيتوارثها من بعده ، إلا أن عثمان قال له :

لا أبيع جوار رسول الله بشىء ، وإن كان فيه خبط عنقى .

فيقول له معاوية :

فإن بعثت لك جندًا فإنهم يقيمون معك لنائبة إن نابت .

فيقول عثمان متلطفًا بحلمه :

لا أضيّق على جيران رسول الله ﷺ .

فيقول له معاوية : والله لتغتالن ولتخزين .

كأنه لا يثق فى المهاجرين والأنصار الذين كلفوا بالدفاع عنه ، أو كأنه يعلم بقتله إن آجلًا أو عاجلًا ، إلا أن عثمان ذا النورين قال : « حسبى الله ونعم الوكيل » .

إلا أن معاوية قبل أن يترك المدينة أشعل فتيلًا آخر ، فقال مذكيًا ذلك الخلاف القديم ، حين مرّ على علىّ وطلحة والزبير فيقف أمامهم ويقول :

« إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه حتى بعث الله نبيه ﷺ وكانوا يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد ، فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم والناس معهم تبع ، وإن طلبوا الدنيا بالتغالب ، سلبوا ذلك ، ورده الله إلى غيرهم ، وأن الله على البدل لقادر ، وإنى قد خلفت فيكم شيخًا فاستوصوا به خيرًا وكافوه تكونوا منه ذلك ، ثم تركهم وانصرف .

لقد أوضح معاوية مذهبه السياسى ، فلم يعد الأمر عنده بالسابقة فى الدين ، ولا بالقدم فى الإسلام ، ولا بالاجتهاد فى علوم الدين ، إنما أصبح الأمر بالغلبة والمنعة والقوة ، وحيال هذا المذهب لم يكن أمامه غير أن يجعل أهل الشام أطوع له من بنانه ، فيلتفّون حوله وينا صرونه فى كل قضاياه بوسائله العديدة التى لا تنتهى ، وأولاها الإغداق بالمال ، وبسط الوجه للصغير والكبير ، ومدّ شعرته التى لا تنقطع لكل الناس .!

★ ★ ★

(١٧)
« علىّ ومعاوية »

قتل عثمان ، رضى الله عنه ، فسَادَ المدينة هَرْجٌ ومرج .

وفى خضَمّ هذه الأحداث والفوضى ، بويع لعلىّ ، كرم الله وجهه ، خليفة للمسلمين .

بايعه المهاجرون والأنصار ، الذين بايعوا رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق ، والفاروق ، وذا النورين .

حاول الهرب منهم لإحساسه بعظيم المسئولية وجسيم التبعات الملقاة على الخليفة المأمول ، ولكنهم أحاطوا به وبايعوه .

بايعه طلحة والزبير ، بايعه طلحة بيده التى شلت فى غزوة بدر مع رسول الله ﷺ فلما بايعه قال قائل : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وبايعه الزبير بن العوام على ما بايعه عليه الناس من السمع والطاعة .

فلما بايعاه نقضا بيعتيهما وتركاه وتجهزا فى البصرة لقتاله مع الذين اتهموه بقتل عثمان ، رضى الله عنهم أجمعين ، ولا ندرى من ذا الذى أشاع هذه المقالة ، غير أنها أتت من الشام وسرت فى جنبات الجزيرة سريان النار فى الهشيم .!

أطارت الفتنة بعقول الناس ، فطالبوا الإمام بالمستحيل .

طالبوه برد قطائع عثمان التى فى يد بنى أمية .

وطالبوه بالإنصاف والعدل فى خِضَمّ الفتنة الأليم .

وطالبوه بالقصاص من قتلة عثمان .

أما رد القطائع فقد ردها الإمام . وأما القصاص فى ذلك الوقت ، فهذا ما يعجز عنه الخليفة بأى حال من الأحوال . فإن الذين قتلوه على كثرتهم تفرقوا فى البلاد ، ولما أراد الإمام أن يقيم الحدّ ، وأن يعرف مَنْ قتلة عثمان ، رفع فى وجهه بعشرة آلاف رمح ، كلهم يقولون نحن الذين قتلنا عثمان .

أمام هذه الفتنة كانت معركة الجمل بين الإمام علىّ ومعه المهاجرين والأنصار وأهل الكوفة التى جعلها الإمام مقرًا لخلافته ، وبين عائشة ، رضى الله عنها ، ومعها طلحة والزبير ، المقيمان فى البصرة .

وانتهت حرب الجمل ، بانتصار جيش الإمام علىّ انتصارًا كبيرًا ، كان له أثره فى نفوس المغرضين ، فاستقام له الأمر إلى حين ، فنظم قواته وأرسل إلى أهل الشام يطالبهم بالبيعة ، وعلى رأسهم معاوية ، أمير الشام ، الذى ذكى فى نفوس الشاميين المطالبة بدم عثمان .

وامتنع معاوية عن البيعة .

هنالك ولّى علىّ ، كرم الله وجهه ، قيس بن سعد واليًا على مصر ، ليكون قريبًا من الشام ومن معاوية ، فقد كان قيس من أذكى

الناس وأكثرهم حزمًا ورأيًا ودهاءً ، فلما علم بذلك معاوية خاف أن يقبل عليه قيس فيضم إليه ملك الشام ، فأراد أن يهادن قيسًا أو يضمه إليه ، أو يكسر من شوكته ، فكتب إليه معاوية يقول :

من معاوية بن أبى سفيان إلى قيس بن سعد :

أما بعد : سلام عليك ، فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، فى أثرة رأيتموها ، أو ضربة سوط ضربها ، أو شتيمة رجل أو فى تسييره آخر ، أو فى استعماله الفتى ، فإنكم قد علمتم إن كنتم تعلمون ، أن دمه لم يكن يحلّ لكم . فقد ركبتم عظيمًا من الأمر ، وجئتم شيئًا إدًّا ، فتب إلى الله ، عز وجل ، يا قيس بن سعد ، فإنك كنت فى المعجلين على عثمان بن عفان ، إن كانت التوبة من فعل المؤمن تغنى شيئًا ، فأما صاحبك ـ يعنى عليًّا ـ فإنا استيقنا أنه الذى أغرى به الناس وجمعهم على قتله حتى قتلوه ، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك . فإن استطعت يا قيس أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل ، تابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا أظهرت مابقيت ، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ، مادام لى سلطان ، وسلنى غير هذا مما تحب ، فإنك لا تسألنى شيئًا إلا أوتيته ، واكتب إلىّ برأيك فيما كتبت به إليك ، والسلام ».

لعلنا من هذا الخطاب نرى أسلوب معاوية فى إدارة دفة أموره ، لأنه أوضح سياسته للعيان واتبع معها حنكة فى

اختراق صعَاب الأمور ، نرى أن معاوية قد اتهمه فى دم عثمان ، واتهم معه أمير المؤمنين عليًّا ، ليضعف إيمانه من الداخل ، ثم بعد ذلك يمنيه الأمانى ، ويفتح أمامه الطريق إلى السلطان والملك ، وهذا أسلوب فيه من الدهاء والحنكة ، ما يفتت اليقين الثابت ، إلا أن قيس بن سعد كان أشبه بمعاوية فى الدهاء ، فكتب إليه ردًّا لم يظهر فيه شدة ، ولم يبد فيه هوادة ، ولم يتعجل الحرب فقال :

أما بعد : فقد بلغنى كتابك ، وفهمت ماذكرت فيه ، من قتل عثمان ، وذلك أمر لم أقارفه ولم ألطف به ، وذكرت أن صاحبى هو أغرى الناس بعثمان ودسّهم إليه حتى قتلوه ، وهذا ما لم أطلع عليه ، وذكرت أن عظيم عشيرتى لم تسلم من دم عثمان ، فأول الناس كان فيه قيامًا عشيرتى ، وأما ما سألتنى من متابعتك وعرضت على من الجزاء به فقد فهمته ، وهذا أمر لى فيه نظر وفكر ، وليس هذا مما يُسرع إليه ، وأنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلى شىء حتى ترى ونرى إن شاء الله ، والمستجار الله عز وجل ، والسلام عليك ورحمة الله .

لما قرأ معاوية كتاب قيس ، لم يره إلا مقاربًا مباعدًا ، ولم يأمن أن يكون له فى ذلك مباعدًا مكايدًا ، فكاد له ، وكتب إليه :

أما بعد : فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدّك سلمًا ، ولم أرك تباعد ، فأعدك حربًا ، أنت فيما هاهنا كحنك الجذور ، وليس مثلى بصانع المخادع ولا ينتزع للمكايد ، ومعه عدد الرجال ، وبيده أعنة الخيل . والسلام عليك .

فلما قرأ قيس بن سعد كتاب معاوية ، وأنه لا يقبل منه المدافعة والمماطلة ، أظهر له نفسه فكتب إليه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم :

من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد :

فإن العجب من اغترارك بى ، وطمعك فىّ واستسقاطك رأيى ، أنسُومنى الخروج عن طاعة أول الناس بالإمرة وأقْوَلهم للحق ، وأهْداهم سبيلًا ، وأقربهم من رسول الله ﷺ وسيلة ، وتأمرنى بالدخول فى طاعتك ، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر ، وأقْوَلهم للزُّور ، وأضلهم سبيلًا ، وأبعدهم من الله عز وجل ، ورسوله ﷺ وسيلة ، ولد ضالين مضلين ، طاغوت من طواغيت إبليس ، وأما قولك إنى مالئٌ عليك مصر خيلا ورجلا ، فوالله إن لم أشغلك بنفسك ، حتى تكون نفسك أهم إليك ، إنك لذو جدّ . والسلام .!

فلما قرأ معاوية كتاب قيس ، أحس أنه حرّك من كوامنه ما يريد ، ليعرف وجهه تمامًا ، وأيقن أنه أمام داهية عنيد ، فأراد أن يهز من كيانه ، ويشغله عن نفسه هو ، فأشاع فى أهل الشام أن قيسًا معهم فلا تشتموه ، وادعوا له الله فإنه من شيعتهم ، ليصل ذلك إلى الإمام علىّ ، فيعزله ، فيأتى له بمن هو أدنى وأسهل من قيس فى الحنكة والتجربة والدهاء .

واختلق معاوية خطابًا ، فيه ما يريد به أن يوقع بينه وبين الإمام علىّ ، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليًا ، عن طريق

محمد بن أبى بكر ، وجعفر بن أبى طالب ، فاتهم قيسًا بالتقاعس ، وكتب إليه يأمره بقتال أهل « خربتا » الذين لم يبايعوه ، فأبى قيس وأرسل إلى أمير المؤمنين كتابًا جاء فيه :

« أنهم وجوه مصر وأشرافهم ، وأهل الحفاظ منهم ، وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطائهم وأرزاقهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكايدهم بأمر أهون علىّ وعليك من الذى أفعل بهم ، ولو أنى غزوتهم كانوا لى قرنا وهم أسود العرب ، ومنهم بشر بن أرطأة ، ومسلمة بن مخلد ، ومعاوية بن خديج ؛ فزرنى وأنا أعلم بما أدارى منهم ، والسلام .

أمام هذا المسلك من قيس احتاط الإمام علىّ للأمر ، فعزل قيس بن سعد من ولاية مصر ، وولى مكانه محمد بن أبى بكر ، وأبقاه بجواره عونًا له على قتال معاوية فى الشام .

أما علىّ ومعاوية فقد تبادلا رسائل كثيرة بخصوص البيعة التى امتنع معاوية عنها ، ولم ينته الأمر عند ذلك بل استعدا للقتال فى معركة فاصلة بينهما فى صفين .

وكان معاوية يحرض عليه الناس فيما نسميه اليوم بالحرب النفسية ، زاعمًا كما أوضحنا أنه اشترك فى قتل عثمان ، واتهمه بدمه ، وقلب عليه القلوب ، فقد علّق قميص عثمان الذى قتل فيه ـ وبه أصابع زوجته نائلة ـ علّقه على منبر دمشق ، وكتب بالخبر إلى الأجناد وإلى الأمصار ، فجاءوا إليه ، فجعلوا يبكون على عثمان ، ويهددون من قتله .

واجتمع الناس عند معاوية ، فهو يعيد تاريخ أبى سفيان ، وإن اختلف الزمان .

أما علىّ ، كرم الله وجهه ، فقد كان صريحًا سليم القلب والسريرة ، فخرج من صفوفه طالبو الدنيا ، ولم يبق معه غير راغبى الشهادة .

ولقد أرسل الإمام علىّ جرير بن عبد الله البجلى ، ليحاور معاوية ، لعله يعود إليه بنتيجة تحقن الدماء ، عارضه الكثير من أقربائه ، ولكنه ، رضى الله عنه ، أبى أن يقف حائلًا بينه وبين رسل السلام ، فلما عاد جرير من عند معاوية ، عاد وهو يعجب بأسلوب معاوية ، وأبلغ جرير الإمام بما يكنه أهل الشام لأهل العراق وأنهم يتهيئون للقتال . ثم إنه بعد ذلك فرّ إلى معاوية الذى منّاه بالأمانى وأغراه بالوعود .

قال له الأشتر النخعىّ :

قد كنت نهيتك أن تبعث جريرًا ، وأخبرتك بعداوته وغشّه ، ولو كنت بعثتنى ، كان خيرًا من هذا الذى أقام عنده حتى لم يدع بابًا يرجو فتحه إلا فتحه ، ولا بابًا نخاف منه إلا أغلقه .

فقال له الإمام :

لو كنت أرسلتك لقتلوك ، لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان .

فقال الأشتر لجرير الذى عاد وهو يجهز نفسه للهرب لمعاوية :

لو أتيتهم والله يا جرير لم يعيينى جوابهم ، وأرغمت معاوية

على خطة أعجله فيها عن الفكر ، ولو أطاعنى فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك فى محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الأمور .

كان قوم علىّ يدلون برأيهم فى قضاياهم وعلى ملإ من الناس ، وكانت هذه طريقة ذات حدّين ، إذ خرج من صفوفه من لا منفعة له مع الدين ، وبقى معه من يفدونه بأبنائهم وأرواحهم ، ولا يبالون على أى وجه يموتون .

وهذا أسلوب صريح يخالف أسلوب معاوية فى المداورة والحيلة ، فمن لم يقدر عليه بالحيلة ، قدر عليه بغيرها ، فقد كان معه مجموعة من المستشارين كلهم ممن اشتهر بهذا الضرب من ضروب الكياسة والدهاء ، أمثال عمرو بن العاص ، الذى أنقذه من هزيمة صفين ، والمغيرة بن شعبة ، والأحنف بن قيس .

فهذا علىّ ، كرم الله وجهه ، يستشير الناس فى الحرب والمسير إلى معاوية ، فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم فى الكوفة ، وأشار عليه آخرون بالمسير إليهم . فأبى علىّ إلا السير مع جيشه .

أما معاوية فلم يستشر إلا عمرو بن العاص الذى قال له :

أما إذا بلغك أنه يسير فسرّ بنفسك ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك .

وكان معاوية يفهم عمرًا جيدًا فأمره أن يجهز الجيش ، فلما انتهى من ذلك ظل يصف جيش علىّ وجيش الشام ، وأن حرب

الجمل قد أضعفتهم وأخذت أبطالهم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلىّ ، فقد قتل فرسانهم وحدّ من شوكتهم ، وأن أهل الشام ندّ لجيش علىّ إن لم يتفوّق عليه .

ونظم عمرو بن العاص جيش معاوية للقتال ، فعقد لرجاله المشهورين الرايات ، حتى أنه عقد لابنه عبد الله ، وابنه محمد ، وغلامه وردان ، وقال فى ذلك :

هل يغنين وردان عنى قنبرًا
أو تغنى السكون عنى حميرا
إذا الكماة لبسوا السنورا

★ ★ ★

فقال الإمام على فى ذلك شعرًا ، وكان قد نظم جيشه تنظيمًا دقيقًا ، فقد عقد لأبطاله المشهورين ، كما عقد لغلامه قنبرًا ، فلما سمع مقالة عمرو قال :

لأصبحن العاصى بن العاص
بسبعين ألفًا عاقدى النواصى
مجنبين الخيل بالنّلاحى
مستحقبين حلق الدلاحى

★ ★ ★

فلما بلغ ذلك معاوية قال :

ما أرى ابن أبى طالب إلا قد وفّى لك .

ثم إن معاوية كتب إلى كل من كان يخاف عليًا ليوغر صدره

له بدم عثمان ، ثم دعا بطومار « ورق » وكتب فيه بيتًا من الشعر أرسله إلى أمير المؤمنين علىًا ، وكان هذا البيت :

ومستعجب مما يرى من أناتنا
ولو زبنته الحرب لم يترمرم

★ ★ ★

حاربه معاوية قبل القتال بالحرب النفسية ، كما يحدث فى الحروب الحديثة ، محاولًا أن يفتّت جموعه ، ويخذل تماسكهم ضده ، إلا أن الإمام كان يفطن إلى ما يرمى إليه معاوية ، فعجّل بالمسير إليه ، وعبر نهر الفرات على جسر ، ليتعجّل لقاء خصمه ، ووصل جيش علىّ إلى صفين ، فوجد جيش معاوية قد استولى على الماء ، ومنع جيش علىّ من التزود به ، فدارت رحى الحرب على الماء ، وإننا لسنا فى صدد وصف المعركة ، فليس هذا مجالنا ، إنما نعبر عنها بما فرضه أبطالها من الشعر لسان حال الحدث ، فهذا عبد الله بن عوف الأزدى حين اشتد القتال يقول :

خلوا لنا ماء الفرات الجارى
أو اثبتوا لجحفل جرار
لك قرم مستميت شارى
مطاعين برمحه كرّار
ضراب هامات العدا مغوار

★ ★ ★

ويقول ظبيان بن عماره وهو يقاتل :

هل لك يا ظبيان من بقاء
في مساكن الأرض بغير ماء
لا وإله الأرض والسماء
فاضرب وجوه الغدر والأعداء
بالسيف عند حمس الوغاد
حتى يجيبوك إلى السواء

★ ★ ★

واستمرت الحرب حتى خلوا الماء ، فأسقاهم علىّ منه على السواء .

واستعد الجيشان : جيش علىّ ومعاوية للقتال فى صفين ، فأرسل الإمام علىّ من يدعو معاوية إلى الطاعة والبيعة قبل بدء القتال ، أرسل إليه عمرو بن محصن ، وشيث بن ربعى . ولكن معاوية عنفهما فى القول ، فخرجا من عنده غاضبين ، فلما عادا إلى الإمام علىّ أخبراه خبر معاوية الذى قال لهما أنه ليس بينه وبين علىّ إلا السيف ، فقامت الحرب .

قامت الحرب شديدة بين الطرفين ، فكان الإمام يرسل الأشتر النخعىّ يومًا لقيادة الجيش ، فيطلب النزال ، فيلاقيه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ويرسل يومًا آخر حجر ابن عدى ، فيلاقيه فى النزال أبو الأعور السلمىّ .

وتناوبوا القتال بالفرسان بين الطرفين إلى أن قامت الحرب الضروس الشاملة بين أهل العراق وأهل الشام ، وقد انقلبوا

وحوشًا ضارية يأكل بعضهم بعضًا ، وحاقت الهزيمة بجيش معاوية فحاول الفرار ، إلا أنه تماسك حين تذكر شعر ابن الإطنابة الجاهلى ، حيث يقول :

أبت لى همتى وأبى بلائى
وإقدامى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى
وأخذى الحق بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدى أو تستريحى

★ ★ ★

ألهمت هذه الأبيات عزيمة معاوية ، فصبر على أحرّ من الجمرّ ، فقد كان القتال ينذر بهزيمة ثقيلة لجيشه ، فها هو يسمع الإمام علىّ يصيح كالأسد الهصور :

أقتلهم ولا أرى معاوية
الجاحظ العين العظيم الحاوية

★ ★ ★

ثم إنه نادى : يا معاوية ، علام يقتل الناس بيننا ، هلمّ أحاكمك إلى الله ، فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور ؟!

فقال عمرو بن العاص ، وقد أراد أن يغرى به ويدفعه إلى الموت :

ـ لقد أنصفك !

فقال معاوية : ما أنصفت ، إنك لتعلم أنه لم يبرز إليه أحد إلا قتله .

فقال عمرو : ما يحسن بك ترك مبارزته .

فقال معاوية : طمعت فيها بعدى .

واشتد القتال مخيفًا تتساقط فيه الرجال إثر الرجال ، وتتناثر فيه الأشلاء والدماء . فقال عمرو لمعاوية :

هل لك فى أمر أعرضه عليك ، لا يزيدنا إلا اجتماعًا ، ولا يزيدهم إلا فرقة ؟

فقال معاوية : نعم .

قال عمرو : نرفع المصاحف ثم نقول :

هذا حكم بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضهم أن يقبلها ، وجدت فيهم من يقول :

ينبغى لنا أن نقبل ، وتكون فرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل .

فرفعوا المصاحف على الرماح وقالوا :

هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهله ، ومن لثغور العراق بعد أهله .

فلما رفعت المصاحف أذعن لها جيش علىّ وقالوا : نُجِبْ إلى كتاب الله عز وجل .

فقال لهم الإمام علىّ : عباد الله ، امضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية وعمرو ممن سمىّ ـ ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن وأنا أعرف بهم منكم ، وقد صاحبتهم

أطفالًا ثم رجالًا ، فكانوا شر أطفال وشر رجال ، ويحكم والله ، ما رفعوها إلا خدعة ومكيدة .

فقالوا له : لا يسعنا أن ندعوا إلى كتاب الله ثم لا نقبله .

وهنا دبّ الخلاف فى جيش علىّ ، قوم يرون الاستمرار فى الحرب ، وقوم يرون أنه لا قتال بعد أن رُفعت المصاحف حاجزًا بينهم .

ونجح معاوية فى خدعته ، وأخفق علىّ فى حمل رجاله على الحرب كما يريد .

ومشى رسل علىّ إلى معاوية ينظرون ماذا يريدون ، فأجاب معاوية :

لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه ، نبعثون رجلًا ترضون به ، ونبعث نحن رجلًا نرضى به ، نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله ، ولا يعدواه ثم نتبع ما اتفقا عليه .

كان اتفاق معاوية على هذا النحو ليقينه أنه سيبعث بعمرو ابن العاص ليكون ذلك الرجل ، فهو لا يكافئه أحد من قوم علىّ فى المكر والدهاء والمداورة والحيلة ، فلربما صار به الأمر إليه .

وعاد رجال الإمام علىّ إليه بجواب معاوية وأصحابه ، فقال الناس لهم : قد رضينا وقبلنا .

ثم قال قوم علىّ ، رضى الله عنه : إنا قد رضينا التحكيم ورضينا بأبى موسى الأشعرى .

وكان الإمام علىّ يعلم أن أبا موسى ليس له فى هذه المكائد ، وأنه غير كفء لعمرو بن العاص فقال للقوم :

قد عصيتمونى أول الأمر ، فلا تعصونى الآن ، فإنى أرى أن لا أولى أبا موسى .

فقال القوم : لا نرضى إلا به فإنه قد حذرنا ما وقعنا فيه .

فقال علىّ : فإنه ليس بثقة ، قد فارقنى وحوّل الناس عنى ثم هرب منى .

وتشبثوا برأيهم ولم ينجح الإمام فى إقناعهم فى العدول عن أبى موسى ، وهؤلاء هم الخوارج الذين خرجوا من جيشه فيما بعد .

قال لهم الإمام علىّ :

هذا ابن عباس أوليه ذلك ، فهو كفء لعمرو بن العاص .

قالوا : والله لا نبالى إن كنت أنت أو ابن عباس ، لا نريد إلا رجلًا هو منك ومن معاوية سواء .

فقال علىّ : إذن نولى الأشتر النخعىّ .

فقال القوم : وهل سعّر الأرض غير الأشتر !

فقال لهم : قد أبيتم إلا أبا موسى ؟

قالوا : نعم .

قال : فاصنعوا ما أردتم .

هذا هو الفارق الواضح بين الإمام علىّ ومعاوية ، فمعاوية اختار لقومه ما يراه هو مناسبًا ، وقوم علىّ اختاروا لأنفسهم بما لا يرضى عنه الإمام .

وأخذ الحكمان من العهود والمواثيق على علىّ ومعاوية ما يجعلهما آمنان على نفسيهما وأهليهما ، وأن الأمة لهما أنصار على ما يتقاضيان عليه فهما فى منزلة القضاة وأن عليهما عهد الله وميثاقه أن يحكما بين الأمة لا يرداها إلى حرب أو فرقة ، وجعلا أجل القضاء فى رمضان ، وإن أحبًا أن يؤخرا ذلك أخراه ، وأن مكان التحكيم مكان وسط بين الشام والكوفة ، فكان دومة الجندل .

وعاد الإمام على من صفين حزينًا لما حدث لجيشه من الفرقة ، وعاد معاوية إلى الشام راضى النفس مطمئن البال ، فقد كان سينهار لولا أن أنقذه عمرو بن العاص بهذه الحيلة وأجل هزيمته إلى حين لا يعلمه إلا الله .

أجل عاد الإمام ليجد فى جيشه فرقة أكثر من ذى قبل فقد خرج من جيشه فرقة تسمى « الحرورية » ، وهم طائفة من الخوارج يرون رأيًا آخر يخالف الموافقة من عدمها ، فهم يرون أن عليًا أخطأ حين قبل تحكيم الرجال . خرجوا من جيشه وناصبوه العداء والقتال .

ثم إنهم انقسموا إلى قسمين ، قسم يقولون : نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت .

وقسم آخر يقولون وهم الخوارج : استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسى رهان ، فبايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا أو كرهوا ، وبايعتم أنتم عليًا على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى .

وحاربهم الإمام علىّ فمزقهم شرّ ممزق !

أما معاوية فكان موفور الجيش ، متضامن الجبهة ، متماسك الرأى ، فيضيف إليه كل يوم عزيز قوم ممن يهرب من جيش علىّ .

لعلك ترى معى كيف دبر معاوية أموره ، وكيف مدّ الحبل لعمرو بن العاص لكفاءته فكان منه قاب قوسين ، فمعاوية قد اطمأن على سير التحكيم لأنه يرى أن أبا موسى وعمرًا اثنان لا يتقاربان ، فأحدهما قذعته العبادة ، والآخر ديدنه الدهاء .

ولم يغب هذا أيضًا عن فكر الإمام علىّ ، كان يدرك أن عمرًا موقع أبى موسى فى حبائله ، هنالك أرسل إلى عمرو شريح ابن هانئ يقول له إن عليًا يقول لك : « إن أفضل الناس عند الله عزّ وجلّ من كان العمل بالحق أحب إليه ، وأن نقصه من الباطل وإن زاده ، ياعمرو والله إنك لتعلم أين موضع الحق فلم تتجاهل ؟ إن أوتيت طمعًا يسيرًا كنت لله به ولأوليائه عدوًا ، وكأن والله ما أوتيت قد زال عنك . ويحك فلا تكن للخائنين خصيمًا وللظالمين ظهيرًا ، أما إنى أعلم بيومك الذى أنت فيه نادم ، وهو يوم وفاتك تتمنى أنك لم تظهر لمسلم عداوة ولم تأخذ على حكم رشوة » .

ولم يسترح عمرو لكلام شريح ولم يقنع شريحًا رد عمرو عليه فاختلفا اختلافًا واضحًا ، فانصرف عنه شريح بن هانئ .

واجتمع الحكمان فى دومة الجندل ، فقال عمرو لأبى موسى : يا أبا موسى ، ألست تعلم أن عثمان قتل مظلومًا ؟!

فقال أبو موسى : أشهد .

قال عمرو : ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟

فقال أبو موسى : بلى .

فقال عمرو : فما يمنعك منه ، وبيته فى قريش كما علمت ، فإن خفت أن يقول الناس ليست له سابقة ، فقل : وجدته ولىّ عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه والحسن السيرة والتدبير ، وهو أخ أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ وكاتبه وقد صحبه .

فقال أبو موسى : يا عمرو ، اتق الله ، فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولاه أهله ، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح ، إنما هو لأهل الدين والسابقة والفضل ، مع أنى لو كنت معطيه أفضل قريش شرفًا أعطيته عليًا ابن أبى طالب ، وأما قولك إن معاوية ولىّ دم عثمان فوله أنت هذا الأمر فلم أكن لأوليه وأدع المهاجرين الأولين ، وأما تعريضك لى بالسلطان ، فوالله لو خرج معاوية لى بالسلطان كله ما وليته ، وما كنت لأرتشى فى حكم الله ولكنك إن شئت أحببنا اسم عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ يعنى ابن عمر .

وهنا يهتبل عمرو الفرصة السانحة فيستدرج أبا موسى ، فيقول : وما يمنعك من ابنى وأنت تعلم فضله وصلاحه ؟ ـ يعنى عبد الله ـ فيقول له أبو موسى : إن ابنك رجل صدق ولكنك غمشته فى هذه الفتنة .

فيقول له عمرو : إن هذا الأمر لا يصلح إلا برجل له ضرس يأكل ويطعم .

فقال أبو موسى : يا ابن العاص ، إن العرب أسندت إليك الأمر بعد ما تقارعت بالسيوف وتناحرت بالرماح ، فلا تردنهم إلى شدة .

كانت هذه الجولة المنفردة لجسّ نبض أبى موسى الأشعرى فعمرو يريد أن يسبر غوره ، ويكشف أعماقه فجعله يعترف بأن عثمان مظلوم ولم يقلها الذى أرسله لأنه ليس له يدٌ فيها وأسدى له النصيحة ، كما يتفق عمرو معه فى أنه يودّ أن يرشح ابن عمر بن الخطاب لو شاء ، فأيقن أنه غير متفان فى حبّ علىّ مثل أصحابه الآخرين فدبّر له ما يدفعه فى حبائله ، فكان يقدمه ويبجله قبل بدء التحكيم ويقول له : أنت صاحب رسول الله ﷺ ، وأسنّ منى ، وكان ذلك التوقير قبل التحكيم ثم استمهله ليعطيه حقه ويطمعه فيه إلى أن قال له : خبرنى ما رأيك ؟

فقال أبو موسى وقد اقتنع أن عمرًا لا يغريه ولا يطريه ولا يهادنه ولا يودّ أن يوقعه فيما لا يوافق هواه . قال :

أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم ما أحبوا .

هنالك أدرك عمرو بغيته ، فقال : الرأى ما رأيت !

وجاء الحكمان إلى الناس وهم مجتمعون فقال عمرو :

يا أبا موسى ، أعلم الناس أن رأينا قد اتفق .

فتكلم أبو موسى ، فقال : إن رأينا قد اتفق على أمر نرجوا أن يصلح الله به أمر هذه الأمة .

فقال عمرو مؤكدًا على قول أبى موسى : صدق أبو موسى وبرّ ، ثم حفّزه على أن يمضى فى كلامه ، فقدمه ليتكلم نيابة عنه لكبر سنه ، وهنا أدرك عبد الله بن عباس أن فى الأمر خدعة وأن عمرًا قد خدع أبا موسى ، فالتفت إلى أبى موسى ، وقال له :

« ويحك ، والله إنى لأظنه قد خدعك ، إن كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ، ثم تكلم أنت بعده ، فإنه رجل غادر ولا بد أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما ، فإذا قمت فى الناس خالفك !

وكان بجواره شريح بن هانئ ، فقال له ناصحًا :

يا أبا موسى ، إنك قد رضيت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ولا تستقال فلتته ، ومهما تقل من شىء لك أو عليك يثبت حقه ويرى صحته وإن كان باطلًا ، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم علىّ ، وقد كانت منك تثبيطة أيام الكوفة والجمل فإن تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينًا والرجا منك يأسًا ، ثم قال :

أبا موسى رميت بشر خصم
فلا تدع العراق فدتك نفسى
وأعط الحق شامهم وخذه
فإن اليوم فى مهل كأمسى
وإن غدًا يجىء بما عليه
كذاك الدهر من سعد ونحس

ولا يخدعك عمرو إن عمرًا
عدو اللّه مطلع كل شمس
له خدع يحار العقل فيها
مموهة مزخرفة بلبس
فلا تجعل معاوية بن حرب
كشيخ فى الحوادث غير نكس
هداه الله للإسلام فردًا
سوى عُرس النبى وأى عُرس

★ ★ ★

وكأن ابن عباس وشريح قرآ باطن عمرو ، مثلما قرأه مثلهما الإمام علىّ ولكن هيهات لهم أن يصلا بأبى موسى إلى برّ أمان .

قال أبو موسى لابن عباس : إنا قد اتفقنا . ثم تقدم إلى الناس فقال :

« أيها الناس : إنا قد اتفقنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر أصح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد اجتمع عليه رأيى ورأى عمرو وهو أن نخلع علىًّا ومعاوية ، ثم يولّى الناس أمرهم من أحبوا ، وإنى قد خلعت علىًّا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم وولّوا عليكم من ترونه أهلًا » !

وكان لوقعه وقعان :

نزل على ابن عباس كالسيف !

وعلى عمرو بن العاص كالغيث !

ونزل أبو موسى وصعد عمرو ليتكلم ، فقال :

إن هذا . . ؟

انظر إلى قوله إن هذا ؟ أرى أنه لم يعد فى حاجة لإطرائه .

قال عمرو :

إن هذا ، قد قال ما سمعتموه ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه وأثبت صاحبى معاوية ، فإنه ولىّ ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه .

فكأنما جاء أبو موسى ليس للتحكيم ولكن لخلع علىّ !

وكأنما جاء معاوية بعمرو ليثبته خليفة برغم أنف المعارضين !

ولكن الغريب فى هذا التحكيم أن الحكمين لم يحكما فيما بين علىّ ومعاوية من خلاف . فهما لم يبينا وجه الاختلاف الذى إليه يحتكمان ولا أسبابه ولا كيفية تلاشيه ؟!

وذهب أهل الشام إلى معاوية يهنئونه بالخلافة ، فهى إذن خدعة اتفق عليها من رجل أريب لعب بمشاعر الناس فولّى من يولّى وعزل من عزل حسب رغبته وهواه .

أما قوم علىّ فعادوا إلى العراق وهم أشد إصرارًا على القتال من ذى قبل . ولم تحل القضية التى بينهما بعد . فعلىّ كرم الله وجهه شغل بقتال المنشقين عليه من الحرورية ، فقاتلهم عند النهروان ، كما شغل بعد ذلك فى تثاقل جيشه عليه وعدم تمكينه من القتال ومن نصرته ، فها هو يرضخهم بقوله الجسور فيقول لهم :

« فكأنكم من الموت فى سكرة ، وكأن قلوبكم مألوسة وأنتم لا تعقلون ، فكأن أبصاركم كمهٌ وأنتم لا تبصرون ، لله أنتم ، ألا إن الشرى فى الدعة وثعالب راوغة حين تدعون إلى البأس ما أنتم لى بثقة ، سجيس الليالى ، تكادون ولا تكيدون ، وتنتقص أطرافكم وأنتم لا تتحاشون ، ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة ساهون » !

وانتهى الأمر فى النهاية بين علىّ ومعاوية على أن يكون للإمام على الحجاز ومصر والعراق وفارس وما وراءها ويكون لمعاوية أرض الشام !!

★ ★ ★

(١٨)

استمر ذلك الصراع المرير على الزعامة بين بنى هاشم وبنى أمية ، فكل منهم أتى بأسلحته واستخدمها فى السلم والحرب ، فما إن انتهت الحرب بين علىّ ومعاوية حتى بدأت حرب أخرى أشد ضراوة وهى حرب الدسائس والخديعة بين الطرفين .

فمعاوية يعلم أن مصر هى تاج خلافة الإمام علىّ ، وهى التى تهدد ملكه فى الشام ، ورأى معاوية أن عمرو بن العاص يرنوا إليها مكافأة له على ما بذله من جهد وعبقرية مع معاوية ، فقال لمعاوية وقد جمعهم عنده ليأخذ رأيهم فى مصر .

« إن كنت جمعتنا لذلك فاعزم فنعم الرأى رأيت فى اقتناصها فإن فيها عزك ، وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الشقاق عليك » .

وتأمله معاوية مليًا وهو يدرك أن عمرًا يطمع فيها ، فقال له عمرو : والله ما تقاتل عليًا ولا يقاتلك ليدخل الجنة أغلبكما لصاحبه وما تقاتلان إلا على الدنيا ، فأطعمنا مما تأكل لنناضل عنك نضال من يريد الأكل !

أوضح عمرو وأفصح بمقالته هذه التى ذكرها البلاذرى موقفه فى صفوف معاوية ، فهو لم يقاتل معه لقضية يرى الحق فيها واضحًا ولكن لأن معاوية اشترط له شريطة ورضخ له بما يريد .

أخذ القوم يتشاورون وانتهوا إلى مكاتبة شيعتهم فى مصر ويأمرونهم بالثبات لحين إرسال الجيش إليهم .

ولم يمض كثير من الوقت حتى كان عمرو بن العاص على رأس ستة آلاف مقاتل ، فاستولى على مصر وانتقلت من خلافة علىّ إلى ملك معاوية .

لم يكتف معاوية بذلك فأراد أن يقطع البصرة أيضًا ، فأرسل عبد الله بن الحضرمى ، وقال له :

إن جلّ أهلها يرون رأينا فى عثمان وقد قتلوا فى الطلب بدمه منهم لذلك فهم جانقون يودون أن يأتيهم من يحميهم وينهض بهم فى الطلب بثأرهم ودم إمامهم .

فلما قدم على البصرة وفد عليه العثمانيون وغيرهم ، فقال لهم عبد الله الحضرمى :

« إن عثمان إمامكم إمام الهدى ، قتل مظلومًا ، قتله علىّ فطلبتم بدمه فجزاكم الله خيرًا .

فقال الضحاك بن قيس الهلالى وكان على شرطة عبد الله ابن عباس والى البصرة من قبل الإمام على :

قبح الله ما جئتنا به وما تدعونا إليه ، أتيتنا والله بمثل ما أتانا

به طلحة والزبير ، وقد بايعنا عليًا واستقامت أمورنا فحملانا على الفرقة حتى ضرب بعضنا بعضًا ، ونحن الآن مجتمعون على بيعته وقد قال العثرة وعفا عن المشين ، أفتأمرنا أن ننقض أسيافنا ويضرب بعضنا بعضًا ليكون معاوية أميرًا ، والله ليوم من أيام علىّ خير من معاوية وآل معاوية .

فقال عبد الله بن حازم السلمى للضحاك :

اسكت فلست أهلًا لأن تتكلم ، ثم أقبل على الضحاك فقال : « نحن أنصارك ويدك والقول قولك فاقرأ كتابك » .

فأخرج عبد الله بن الحضرمى كتاب معاوية إليهم يذكرهم فيه بدم عثمان وحبه للعافية ، وسده للثغور ، ويدعوهم إلى الطلب بدمه .

فلما فرغ من قراءة الكتاب قام الأحنف بن قيس وكان حكيمًا سديد الرأى فاعتزل القوم وقال : لا ناقتى فى هذا ولا جملى !

وقام عمرو بن مرجوم العبدى ، فقال :

أيها الناس الزموا طاعتكم وجماعتكم ، ولا تنكثوا بيعتكم فتقع بكم الواقعة .

فقام إليه عباس بن صحار وكان عثمانيًا فرده المثنى بن مخرمة العبدى وقال : والله لئن لم ترجع إلى مكانك لنجاهدنك بأسيافنا ورماحنا .

واختلف القوم بين مؤيد لهذا ومعارض لذاك ، إلا أن مؤيدى عليًا كانوا أقوى وأشد فشدوا عليهم وقتلوا ابن الحضرمى ،

وأخفق معاوية فى البصرة بعد انتصاره فى مصر إلا أن طموحاته كانت واسعة فنشر جيشه هنا وهناك يود أن يقتطع أجزاء من خلافة الإمام علىّ فكان جيش الإمام له بالمرصاد .

إلا أن معاوية خرج هذه المرة على رأس جيش كبير ليقتطع مكة المكرمة من علىّ وكان عليها قثم بن العباس واليها من قبل الإمام ، أرسل معاوية رجلًا من رجاله ليقيم شعائر الحج وهو يزيد بن شجرة ويأخذ له البيعة ، وما إن دخل يزيد بن شجرة مكة حتى كان جيش على له بالمرصاد فيفرّ منهزمًا إلى معاوية .

ظل هذا الصراع على أشده إلى أن استشهد الإمام علىّ كرم الله وجهه بعد خلافة امتدت أربعة أعوام وأربعة أشهر وعشرة أيام .

وجاء بعده ابنه الحسن رضى الله عنه ولم يكن له فى الخلافة ولم يكن لها من الراغبين ، فقد كره سفك الدماء من أجلها وكره سقوط الرجال بالعشرات من أجل الحكم فتنازل عنها لمعاوية على شرط قال له فيه : إن أنت أعطيتنى هذا فأنا سميع مطيع وعليك أن تفى لى به .

فعل هذا الحسن بن على برغم اعتراض أخيه الحسين له واعتراض شيعة الإمام الذين أجمعوا عليه ليبدأ القتال .

وكان الحسن بارًا وفيًا فيما وعد ، فقد دخل معاوية الكوفة فاعترضه قيس بن سعد قائد جيش الحسن وكان معه

اثنا عشر ألفًا من المقاتلين مجهزين لحرب معاوية ، فإذا كتاب الحسن يأمره بالدخول فى طاعة معاوية .

ودخل معاوية الكوفة وقد انضم إليه من أراد ، وكان معه عمرو بن العاص الذى أراد أن ينتهزها فرصة لإذلال الحسن فيما فعل ، فأشار على معاوية أن يخطب الحسن فى الناس .

فلما أشار عليه معاوية قام الحسن ، فقال :

« أيها الناس ، إن الله قد هداكم بأولنا وحقن دمائكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، وإن الله عزّ وجلّ قال لنبيه : ﴿ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ .

وأحس عمرو بلطمة قوية على وجهه لهذه المقالة وكذلك حزن معاوية فقد أصابه الحسن فى صميم القضية، فقال عمرو : هذا من رأيك ؟!

ولم يعد أمام معاوية غير قيس بن سعد ذلك الداهية المراوغ والذى اجتمع لديه الألوف تطالبه بالحرب والأخذ بثأر علىّ رضى الله عنه من معاوية ، إلا أن معاوية لم تغره الحيلة أمام قيس وإن كان الاثنان فى الدهاء متساويين إلا أن بريق الوعود ورنين المال الذى يهبه معاوية كان أقوى سلاح عنده ، فقد أرسل إلى قيس بن سعد سجلًا وختم على أسفله يقول له : اكتب فى هذا ما شئت فهو لك .

فغضب لذلك عمرو الذى كان يعمل على إرضاء معاوية لينال ما يريد إلا أن معاوية نهره ، وقال له :

رد على رسلك ، فإنا لا نخلص إلى قتلهم حتى يقتلوا أعداءهم من أهل الشام فما خير العيش بعد ذلك ، وإنى والله لا أقاتله أبدًا حتى لا أجد من قتاله بدًّ .

وأعطى معاوية قيسًا ما سأله فى سجله ، فقد طلب الأمان له ولشيعة الإمام علىّ ، كما كان يطلب الحسن بن على إلا أنه سبّ عليًا على المنابر فمالنا بذلك عهده مع الحسن .

وكما فعل معاوية مع قيس فعل كذلك مع زياد بن أبيه وكان واليًا على فارس من قبل الإمام علىّ . كتب إليه معاوية :

« أن أقبل إلىّ ننظر فيما وليت ، فإن استقام بيننا أمر فهو ذاك ، وإلا رجعت إلى مأمنك » .

فامتنع زياد عن معاوية ، فهو لم يأمن جانبه ، وكان زياد ذا حيطة شديدة لبيب القلب كيس العقل ، إلا أن بسر بن أرطأة وشى لمعاوية عن أولاد زياد فأسرهم عنده بأمر معاوية ، ثم كتب بسر إلى زياد يقول :

« لتقدمن على أمير المؤمنين أو لأقتلن بنيك » .

فكتب زياد إليه :

لست بارحًا مكانى حتى يحكم الله بينى وبين صاحبك ، وإن قتلت ولدى ، فالمصير إلى الله ومن ورائنا الحساب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

ويمنع معاوية بسر من قتل أولاد زياد فهم عنده رهينة ولسوف يأتيه بوسيلة أو بأخرى ، فقد كان يعلم أن زيادًا من

أنصار علىّ المخلصين ، فبعد أن قتل الإمام علىّ أرسل إليه معاوية يتهدده فقام زياد فخطب فى الناس ، فقال :

« العجب من ابن آكلة الأكباد ، وكنف النفاق ورئيس الأحزاب تهددنى وبينى وبين ابنى عم رسول الله ﷺ يعنى ـ الحسن وابن عباس ـ فى سبعين ألفًا واضعى سيوفهم على عواتقهم ، أما والله فإن خلصت إليه ليجدنى أحمر ضراب بالسيف » .

ولم يكترث معاوية بتهديده فقد كان عنده الوسائل الكثيرة لإخضاعه فأرسل إليه أخاه فى الرضاعة المغيرة بن شعبة وكان من الدهاء والذكاء ما كان ، فقال لزياد :

أرى أن تصل حبلك بحبله وتشخص إليه ويقضى الله .

وكان ذلك بعد أن أقنع المغيرة زيادًا بأن الحسن نفسه قد سلّم له الأمر وأن إصراره على موقفه سيزيده سوءًا ، فلما طلب زياد منه المشورة أشار عليه بوصل حبله بحبله .

ولم يجد زياد بدًّا من الموافقة على رأيه ، فأرسله يأخذ له الأمان من معاوية الذى ألحقه معاوية بنسبه وشرفه ، فقد كان معاوية معجبًا بذكاء زياد بن أبيه الذى خطب يومًا فى خلافة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فى المهاجرين والأنصار وكان عمرو بن العاص حاضرًا ، فقال :

« لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه !

فقال أبو سفيان وكان موجودًا : والله إنى لأعرف أباه ومن وضعه فى رحم أمه ـ يعنى نفسه ـ بهذا شهد له الشهود عند معاوية بن أبى سفيان ، وتم استلحاقه بأبى سفيان .

ولعلنا نجد من سير الأحداث التى مرت بنا أن معاوية برغم ذكائه المفرط وبعد أن دانت له البلاد من أقصاها إلى أقصاها قد جمع حوله نخبة من المستشارين ممن شهد لهم التاريخ بالحنكة وحسن التدبير والدهاء ليشيروا عليه فى المعضلات من أمثال عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد الذى يسوق العرب بعصاه !.

★ ★ ★

(١٩)
« دولـة معـاوية »

نستطيع القول إن دولة الإمام علىّ قد انتهت بعد التحكيم ، إذ ترنحت تلك الخلافة فى سبيلها إلى الملك !.

ولكن هل أخفق الإمام فيما اتخذه من التحكيم !.

إن التحكيم فى حدّ ذاته قد غبن الإمام حقه فلم يوافق عليه منذ رفع المصاحف على أسنة الرماح ، ولم يرض عن أبى موسى الأشعرى الذى اختاره الخوارج ليكون حكمًا بين الاثنين ، فسواء أخفق أبو موسى أمام عمرو بن العاص أو أصاب ، فإنه قد أضاف جديدًا على الفتنة التى اختبرت معدن الرجال ، إذ إنه بعد التحكيم فرّ من فرّ من جيش على إلى الشام الذى استحال الناس بذهنه وذهبه وسيفه وخدعه حتى اتبعه من محبّى الدنيا والراغبين فيها تاركين الزهد والعلم واليقين !.

فحياة الإمام ومماته امتداد للتاريخ البشرى الدامى بسبب الفضيلة المعذبة التى سئمها من سئمها من النفوس الضعيفة فهرولوا إلى معاوية تاركين وراءهم ثمالة الخلافة وبقية من نور الأولين .

لقد انتقل الزمن خطوة واسعة فى عهد معاوية بن أبى سفيان فقد خطا معاوية خطوة واسعة نحو الملك الذى مهّد له وساعده الزمن على هذا التمهيد ، ووطد له فى أركانه فاستقام له هوى الغرائز من البشر الذين سوّلت لهم أنفسهم الاغتراف من نعيم قليل ومتاع إلى حين .

وإننا لا نستطيع أن نجمع بين شأن معاوية فى ملكه وبين معاوية فى ذلك الملك العتيد .

فبرغم حلمه الواسع الذى يحسبه الجاهل خورًا وضعفًا ، ذلك الحلم الذى يتسع له صدره فيسمع قذع الناس له وتجاهلهم عليه فإذا به يقابل إساءتهم بالصفح الجميل وإقذاعهم بالعطاء الجزيل !.

برغم تلك الأبهة والجبروت نرى معاوية هنيًّا لينًا سهلًا مع الناس كأنه يكفيه منهم تأييدهم له والتفافهم حوله ولا يعنيه بعد ذلك شىء من الناس وإن كانت إهانة أو سبًّا . وتلك سماحة يقرّ الدين فى عفوه والشرع فى تسامحه ولكن الغريب حقًّا هو سبّه العلنى للإمام علىّ !.

إن معاوية فى حقيقته ليس بالسهل القريب الغور ولا بالخبّ الذى يخدع مشبّه لعلى إنما هو بوق من أبواق الدعاية له على المدى البعيد ، فكأنه أراد مع الأيام أن يكره الناس ذلك المؤمن ويبتعدوا عن ذلك اليعسوب الذى أنار لهم طريق الصلاح والفلاح ، ووقف لهم بعصا غليظة ليبعدهم عن مدارك الفتنة ومداحض الهلاك .

هنالك حارب معاوية تلك البقية الباقية من آل البيت ، فاستحلّ ما تكرهه النفس بنفس الأسلوب السهل اللين عند العامة حتى استمر ذلك حينًا طويلًا ولم يحرم ذلك السبّ إلا فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الأموى - رحمه الله .

نقول ما إن استتب الأمر لمعاوية حتى ولى على العراق مركز الشيعة العلوية زياد بن أبيه الذى كان بالأمس القريب محبًّا مقربًا ، فإذا به اليوم واليًا لمعاوية على العراق كله شاهرًا سيفه على أعناق الرجال فإذا إخوان الأمس أعداء اليوم !

فكأن معاوية أراد بهذا الوالى أن ينكل بمحبى الإمام والذين يعرفهم زياد حق المعرفة ، فصدق حدسه وتتبعهم زياد فى كل مكان حتى أباد الألوف فى الكوفة والبصرة ومثّل بهم أشنع تمثيل فقطع الأيدى والأرجل وصلبهم فى جذوع النخيل .

وأما مصر فقد أعطاها معاوية هبة لعمرو بن العاص نظير تفانيه فى خدمته ، وجعل المغيرة عاملًا على الكوفة فلما أحسن من سيرته وحسن تدبيره عزله معاوية وجعلها كلها لزياد ابن أبى سفيان ليسبّ عليًّا على المنابر ويدعو بالاستغفار لعثمان ومن والاه !.

★ ★ ★

(٢٠)

بنى معاوية ملكه على الحلم ، فقد حلم على سبابه وقذعه وتحمل الكثير فى سبيل ذلك لتوطيد أركان دولته ، حتى صار هذا شأنه عند كل الناس فوثقوا به واعتادوا عليه .

فهذا عقبة الأسدى يقدم عليه ويدفع إليه رقعة كتب فيها :

معـــاوى إننـــا بشر فأسجـــع
فلسنـــا بالجبـــال ولا الحديـــد
أكلتـــم أرضنـــا فجردتموهـــا
فهل من قائم أو من حصيد
فهبنـــا أمـــة هلـــكت ضياعًـــا
يزيـــد أميرهـــا وأبـــو يزيـــد
أتطمـــع بالخلـــود إذا هلكنـــا
وليس لنا ولا لك مـــن خلـــود
ذروا خـول الخلافـة واستقيمـوا
وتأميـــر الأراذل والعبيـــد

★ ★ ★

فلما قرأها معاوية هش له ، وقال : ما جرأك علىّ ؟!

قال : نصحتك إذ غشوك وصدقتك إذ كذبوك .

فقال معاوية : ما أظنك إلا صادقًا . وقضى حوائجه !

★ ★ ★

كان معاوية يتهاون فى كل صغيرة وكبيرة مع كل الوفود التى تفد إليه إلا فى وفود علىّ كرم الله وجهه فإنه كان يناظره الحجة بالحجة ولا يتهاون فى هذه المقارعة حتى يستوثق القائل بأنه سيئول أمره إليه .

لقد كان يفهم نفسية الشعب فيكاشفهم بالقليل وسرعان ما يسقط فى يده الكثير ، فإذا لم يقدر على من لا قدرة له عليه حبسه وهدّده حتى يعود فى النهاية إليه .

نتأمله وهو يتعرض لنفسية رعيته ويصفها كأنه يقرؤها من كتاب وذلك حين دخل دار عثمان بن عفان ، فبكت عائشة بنت عثمان ونادت أباها . فقال معاوية : يا بنت أخى ، إن الناس أعطونا طاعة ، وأعطيناهم أمانًا ، وأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولئن تكونى ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض الناس .

أظهر دينه فى الحكم ، فهو مصانع للرءوس الكبيرة بالإغضاء والصبر وقوة الاحتمال والحلم ، ولقد كان هذا طبعه الذى جبل عليه ، فهذا عمرو بن العاص يصفه فيقول :

« يضحك عند الغضب ، ولا ينام إلا على الرضا ، ويتناول ما فوقه من تحته » !.

وهذا أبو الجهم العلوى ، يقول فيه متمثلا :

ونغضبه لنخبر حالتيه
فنخبر منهما كرمًا وليثا
نميل على جوانبه كأنا
نميل إذا نميل على أبينا

★ ★ ★

أرأيت كيف كان الرجل بعد الذى فعله ، كان كالماء بين الأصابع !

يقول عنه ابن عباس رضى الله عنه :

كأن الناس يردون منه على أرجاء واد رحب !

وتلك صفات السياسى المحنك الذى جمع الناس على حلمه وصفحه ودهائه وسعة حيلته حتى شهد له القريب والبعيد .

وَفَدَتْ عليه سودة بنت عمارة بن الأشتر النخعى ، وكان الأشتر من ألدّ أعدائه فى صفين فقد كان من قواد الإمام علىّ المشهورين بالحزم والشجاعة ، فلما دخلت عليه أذن لها ، فلما دخلت سلمت فقال لها :

كيف أنت يا ابنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين .

فقال لها : أنت القائلة لأخيك :

شمّر كفعل أبيك يابن عمارة
يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليًا والحسين ورهطه
واقصد لهند وابنها بهوان

فقالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكار ما قد نسى .

قال : هيهات ، ليس مثل فعال أخيك تنسى .

قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان أخى خفىّ المقام ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به
كأنه علم فى رأسه نار

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائى مما أستعفيه .

قال : قد فعلت ، فقولى حاجتك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين إنك للناس سيّد ولأمورهم مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزّك ، ويبسط سلطانك فيحصدنا حصاد السنبل ويدوسنا دياس البقر ويسومنا الخسيسة ويسألنا الجليلة ، هذا ابن ارطأة قدم بلادى وقتل رجالى وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لكان فينا عزّ ومنعة ، فأما عزلته عنا فشكر لك ، وأما لا تعرفناك .

فقال : إياى تهددين بقومك ؟ لقد هممت أن أردك على قتب أشرس فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

صلى الإله على روح تضمنه
قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى له ثمنا
فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال معاوية : من ذلك ؟!

قالت : على بن أبى طالب رحمه الله .

قال : ما أرى عليك منه أثرًا .

قالت : أتيته يومًا فى رجل ولّاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائمًا يصلى ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال : ألك حاجة ؟

فأخبرته خبر الرجل .

فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال :

اللهم إنى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الكَيْلَ والميزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ، وما أنا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظ ﴾ .

إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يدك حتى يأتى من يقبضه منك . والسلام .

فأخذته منه يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بخاتم .

فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها .

فقالت : إلىّ خاصة أم لقومى عامة ؟

قال : وما أنت وغيرك ؟

قالت : هى والله إذن الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلًا شاملًا وإلا يسعنى ما يسع قومى .

قال : هيهات !. لمظكم ابن أبى طالب الجراءة على السلطان . وغركم قوله :

فلو كنت رضوانًا على باب جنة
لـقلت لهمـدان ادخلـوا بسلام

وقوله :

نـاديت همـدان والأبـواب مغلقـة
ومثل همدان سنّى فتحة البـاب
كالهندوانىّ لم تغلل مضاربـه
وجـه جميل وقلب غير رحـاب

★ ★ ★

اكتبوا لها حاجتها .!

★ ★ ★

تلك نماذج نسوقها للقارئ ليرى كيف نفذ معاوية إلى قلوب محبى الإمام . وكيف استطاع بصبره وحلمه ودهائه أن ينفذ إلى أعماقهم ، فمنهم من رضى بالأمر الواقع ومنهم من تشدد فقتل حبًا فى الإمام كرم الله وجهه ، وحين وجد معاوية أنه لا سبيل أمامه غير القتل !

فهذا نموذج آخر يعبر عن صبره وحلمه على من كانوا بالأمس أعداءه :

يقول الشعبى

كتب معاوية إلى وليّه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقى يرحّلها ويعلمها أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرًا وبالشر شرًا ، فلما ورد كتابه ركب إليها فأراها كتابه فقالت :

أما أنا فغير زائغة عن طاعة ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى .

فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها :

« يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أنه مجاز بقولك فىّ بالخير خيرًا وبالشر شرًا فما لى عندك ؟

قالت : يا هذا ، لا يطمئنك برّك بى أن أسرك بالباطل ، ولا يؤسفك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق .

فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية فأنزلها مع الحرم ثم أدخلها فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه .

فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير . بحق ما وعدتنى بهذا الاسم ؟!

قالت : يا أمير المؤمنين ، لكل أجل كتاب .

قال : صدقت فكيف حالك يا خالة ؟ وكيف كنت فى مسيرك ؟

قالت : لم أزل يا أمير المؤمنين فى خير وعافية حتى صرت إليك ، فإنى فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق .

قال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم .

قالت : يا أمير المؤمنين ، يعيذك الله من دحض المقال وما تردى عاقبته .

قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر ؟

قالت : لم أكن والله زورته بعد - أى حسنته - ولا رويته بعد وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت .

قال معاوية : لا أشاء ذلك .

ثم التفت إلى جلسائه فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟

فقال رجل منهم : أنا أحفظ كلامها يا أمير المؤمنين .

قال : هات .

قال : كأنى بها وعليها بُرد زبيدىّ كثيف النسج وهى على جمل أرمك وقد أحيط بها وبيدها سوط منتشر الضفيرة وهى كالفحل يهدر فى شقشقه تقول :

يا أيها الناس ، اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبيّن السبيل ، ورفع العلم ولم يدعكم فى عمياء [مبهمة ولا سواد] فأين تريدون ، رحمكم الله ، أفرارًا عن أمير المؤمنين أم فرارًا من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتدادًا عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول :

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول :

« اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة وبيدك يا رب أزمّة القلوب ، فاجمع اللهم الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى واردد الحق إلى أهله ، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضى التقى والصديق الأكبر ، إنها إحَنٌ بدرية ، وضغائن أحدية وثب بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت :

قاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ، صبرًا يا معشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة ، فرّت من قسورة ، لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروُا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى وعما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة ولات حين مناص .!

إنه والله من ضل عن الحق دفع فى الباطل ، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها واستطابوا الآخرة فسعوا إليها ، فا الله الله أيها الناس قبل أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدون ـ رحمكم الله ـ عن ابن عم رسول الله ﷺ وصهره ووالد سبطيه ، خلق من طينته وتفرع من نبعته [وخصه بسرّه] وجعله باب مدينته ، وأبان بغض المنافقين ، وها هو ذا

مفلق الهام ومكسّر الأصنام ، صلى والناس مشركون وأطاع والناس كارهون فلم يزل فى ذلك حتى قتل مبارزى بدْر وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب وقتل الله به أهل خيبر وفرق به جمع هوازن ، فيا لها من وقائع زرعت فى القلوب نفاقًا وردة وشقاقًا ، وزادت المؤمنين إيمانًا ، قد اجتهدت بالقول وبالغت فى النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .!

فقال معاوية : يا أم الخير ، هل أردت بهذا الكلام إلا قتلى ؟! ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك .

قالت : والله ما يسوؤنى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه .

قال معاوية : هيهات يا كثيرة الفضول ، ما تقولين فى عثمان بن عفان ، رحمه الله .

قالت : وما عسيت أن أقول فى عثمان ؟ استخلفه الناس وهم به راضون وقتلوه وهم له كارهون .

قال معاوية : هذا ثناؤك الذى تثنين ؟

قالت : لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدًا ، ما أردت بعثمان نقصًا ، ولكن كان سابقًا للخير ، وإنه لرفيع الدرجة غدًا .

قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله ؟

قالت : وما عسى أن أقول فى طلحة ، اغتيل من مأمنه وأتى من حيث لم يحذر وقد وعده رسول الله ﷺ بالجنة .

قال : فما تقولين فى الزبير ؟

قالت : وما أقول فى ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه ؟ وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة . ولقد كان سباقًا إلى كل معركة فى الإسلام ، وأنا أسألك بحق الله يا معاوية فإن قريشًا تحدثت أنك أحلمها أن تسعنى بفضل حلمك ، وأن تعفنى من هذه المسائل وتسألنى عما شئت من غيرها .

قال : نعم ونعمة عين قد أعفيتك منها .

ثم أمر لها بجائزة رفيعة وردها مكرمة معززة .!

★ ★ ★

وفى صبح الأعشى :

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها فدخلت عليه وعليها ثلاثة دروع تسحبها ذرعًا وقد لاثت على رأسها كدرًا كالمنسف ـ الغربال ـ فسلمت وجلست فقال لها معاوية :

كيف أنت يا ابنة صفوان ؟

قالت : بخير يا أمير المؤمنين .

قال : كيف حالك ؟

قالت : ضعفت بعد جلد وكسلت بعد نشاط .

قال : شتان بينك اليوم وحين تقولين :

يا زيد دونك صارمًا ذا رونق
عضب المهزة ليس بالخوّار
أسرج جوادك مسرعًا ومشمرًا
للحرب غير معرد بفرار

أجب الإمام وذبّ تحت لوائه
والحق العدوّ بصارم بتّار
يا ليتنى أصبحت لست قصيرة
فأذب عنه عساكر الكفار

قالت : قد كان ذاك ، ومثلك من عفاء الله تعالى يقول : « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه » .

قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدت ، ولكن أخترم منك .

قالت : أجل والله إنى لعلى بينة من ربى وهدى من أمرى .

قال : كيف كان قولك حين قتل ؟

قالت : أنسيته .

قال بعض جلسائه ، هو والله حين تقول :

يا للرجال لعظم هول مصيبة
فدحت فليس مصابها بالحائل
الشمس كاسفة لفقد إمامنا
خير الخلائق والإمام العادل
يا خير من ركب المطىّ ومن مشى
فوق التراب لمحتف أو ناعل
حاشا النبى لقد هددت قواءنا
فالحق أصبح خاضعًا للباطل

فقال معاوية : قاتلك الله ، فما تركت مقالا لقائل ، اذكرى حاجتك ؟

قالت : أما الآن فلا . وقامت تتعثر . فقالت : تعسى شأنى علىّ

فقال : زعمت أن لا .

فقالت : كما علمت .

فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة وقال « إذا ضيعت الحلم من يحفظه .!

★ ★ ★

كان معاوية يود أن يرى تلك الصورة الفريدة فى حب الإمام علىّ من النساء ومن الرجال ليتقرب إليهم بحلمه وماله حتى تلين قلوبهم له بعد تلك العداوة الضاربة بجذورها فى تاريخ الزمن ، وتلك سياسة حكيمة نها ما بعدها عند معاوية ليتبوأ مكانًا كبيرًا فى القلوب مثلما فعل الإمام على حين تألق على الناس بعلمه ودينه ووقاره فأحبه الجميع بقلوب صافية كالشمس المنيرة ، ولقد رأى معاوية ذلك فى حياة الإمام وبعد موته .

ففى حياته حين أرسل إليه الإمام على رسولًا يدعوه للبيعة وهو صعصعة بن صوحان ، وكان يمتلك ناصية القول وحدة الذهن وسرعة الخاطر حتى اشتهر أمره فلما دنا من بنى أمية عند معاوية ضربوه ضربًا مبرحًا فلما علم معاوية بشأنه أدخله عليه وقال لهم : من هذا الرجل ؟

قالوا : رجل من العرب يقال له صعصعة بن صوحان معه كتاب من علىّ .

فقال : والله لقد بلغنى أمره هذا أحد سهام علىّ، وخطباء العرب ، ولقد كنت إلى لقائه شيقًا ، ائذن له يا غلام ، فدخل عليه فقال : السلام عليك يا ابن أبى سفيان ، هذا كتاب أمير المؤمنين .

فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تقتل فى جاهلية أو إسلام لقتلتك .

ثم استدرجه ليخرج قريحته فقال : ممن الرجل ؟

قال : من نزار .

قال : وما كان نزار .

قال : كان إذا غزا نكس، وإذا لقى افترس ، وإذا انصرف احترس .

قال : فمن أى أولاده أنت ؟

قال : من ربيعة .

قال : وما كان من ربيعة ؟

قال : كان يطيل النجاد ، ويعول العباد ، ويضرب ببقاع الأرض العماد .

قال : فمن أى أولاده أنت ؟

قال : من جديلة .

قال : وما كان جديلة ؟

قال : كان فى الحرب سيفًا قاطعًا وفى المكرمات غيثًا نافعًا وفى اللقاء لهبًا ساطعًا .

قال : فمن أى أولاده أنت ؟

قال : من عبد القيس .

قال : وما كان عبد القيس ؟

قال : كان حضريًا خصيبًا أبيض ، وهابًا لضيفه مايجد ،

ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء .

قال : ويحك يا ابن صوحان !! فما تركت لهذا الحيّ من قريش مجدًا ولا فخرًا .

قال : بلى والله يا ابن أبى سفيان ، تركت لهم ما لا يصح إلا بهم ، تركت الأبيض والأحمر ، والأصفر والأشقر والسرير والمنبر ، والملك إلى المحشر ، وأنى لا يكون ذلك كذلك وهم أمناء الله فى الأرض ونجومه فى السماء .

فظن معاوية أن كلامه يشمله فقال :

صدقت يا ابن صوحان ، إن ذلك لكذلك . فعرف صعصعة ماأراد فقال :

ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصدار ولا إيراد ، بعدتم عن أنف الرعى ، وعلوتم عن عذب الماء .

قال : نعم ذلك ، ويلك يا ابن صوحان ؟

قال : الويل لأهل النار ... ذلك لبنى هاشم .

فأخرجوه من عنده فقال صعصعة :

الصدق ينبئ عنك لا الوعيد ، ومن أراد المشاجرة قبل المحاورة !

فقال معاوية : هكذا فلتكن الرجال .!

★ ★ ★

كان يعلم معاوية معدن هؤلاء الرجال الذين تفانوا فى حب إمامهم وهو لهذا عمل دائبًا على أن يخلخل تلك العاطفة من مكمنها ليستحوذ على رضاهم ويعفو عن مسيئهم ويصفح عن مذنبهم .

★ ★ ★

(٢١)

دخل على معاوية عقيل بن أبى طالب مغاضبًا من أمير المؤمنين علىّ ، وذلك أنه طلب منه أن يقضى عنه دينه فقال له الإمام : اصبر حتى يخرج عطائى فأدفعه إليك ، فلم يعجبه ذلك ، فتركه وقدم على معاوية فى الشام فأكرمه معاوية ونعمه وقضى حوائجه ودينه ثم أراد أن يستخدمه استخدامًا سياسيًا فيما بينه وبين علىّ فقال لأصحابه : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أننى خير له لما أقام عندنا وتركه .

فقال عقيل : أخى خير لى فى دينى ، أنت خير لى فى دنياى .

وقال له معاوية يومًا : إن عليًا قد قطعك ووصلتك ولا يرضينى منك إلا أن تلعنه على المنبر .

فقال : أفعل ، فأصعد ، ثم قال بعد الحمد والثناء عليه :

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أن ألعن عليًا ابن أبى طالب ، فالعنوه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ثم نزل .

فقال له معاوية : إنك لم تبيّن ـ أبا زيد ـ من لعنت بينى وبينه .
فقال : والله لازدت حرفًا ولا نقصت آخر والكلام إلى نية المتكلم .!
وقال معاوية : يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تعالى ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾ .
قالوا : نعم .
قال : فإن أبا لهب عمه .
فقال عقيل : هل سمعتم قول الله عز وجل ﴿ **وامرأته حمالة الحطب** ﴾ .
قالوا : نعم .
قال : فإنها عمته .. يا معاوية إذا دخلت النار فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمى أبا لهب مفترشًا عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير .!

★ ★ ★

ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره ، فأجلسه على سريره ثم قال :
أنتم معشر بنى هاشم تصابون فى أبصاركم .
فقال عقيل : وأنتم معشر بنى أميه تصابون فى بصائركم !
وقال له رجل من رجال معاوية :
إنك لخائن حيث تركت أخاك وترغب فى معاوية ؟
فقال : أخُوَن منى والله من سفك دمه بين أخى وابن عمى أن يكون أحدهما أميرًا .

★ ★ ★

(٢٢)
« بيعة يزيد »

كان معاوية مراوغًا كثير الحيلة عظيم الصبر والتؤدة ، صبر على الناس كما لم يصبر أمير قط ، سمع بأذنه أقذع الشتائم والسباب فلم يغضب ، وكان يبغى من وراء ذلك أشياء فى نفسه منها ما ذكرنا من حبّ شيعة الإمام له وصبر معاوية عليهم ، ومنها ما كان يخفيه ليظهره فى الوقت المناسب والزمن المناسب ، فقد كان يمهد لخلافة ابنه يزيد حتى إذا ما توفى أورث ابنه عرشه بلا عناء ، وهو بذلك يرى أن هذا ليس مألوفًا عند الناس وليس فى شرع السابقين ، لذلك تحلى بالصبر وحلم حتى يمهد لابنه عند رءوس الناس ، فقد سمع المغيرة بن شعبة يومًا يرشح يزيد للخلافة بعد أبيه ففرح بذلك وكتم الأمر فى نفسه ، فلما توفى زياد الذى ألحقه بنسبه راودته تلك الفكرة فاحتاط لها ودبر وأحسن التدبير ، فأراد أن يشير الرجال فى هذا ، فأرسل بادئ ذى بدء لعبد الله بن عمر مائة ألف درهم فقبلها عبد الله بن عمر ، فحين أرسل هذا المبلغ الكبير أرسله غير مشروط وكأنها معونة له خالصة لوجه الله ، فلما ذكر عند ابن عمر بيعة يزيد تنكر لهذا العمل وظن أن المال الذى أرسله معاوية كان رشوة مستترة فقال :

إن دينى عندى إذن لرخيص ، وامتنع عن البيعة .

إلا أن معاوية تركه إلى حين ثم أرسل إلى مروان بن الحكم بأن يزكى بيعة يزيد فقال :

« إنى قد كبرت سنى ، ورق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى ، وكرهت أن أقطع أمرًا دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك على الناس وأعلمنى بالذى يردون به عليك » .

وهكذا كان معاوية يسبر غور الناس ورءوس الأقوام ، فمن لان له وصله بالعطاء ، ومن لم يوافقه بَعُد عنه حتى لا يثيرها فتنة ويعرف بذلك من معه ومن عليه .

فما إن وصل كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم حتى قام فى الناس وقال :

إن أمير المؤمنين قد اختار لكم فلم يقصر ، وقد استخلف ابنه يزيد بعده .

فقام عبد الرحمن بن أبى بكر فقال :

كذبت والله يا مروان وكذب معاوية ، ما الخيار أردتما لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل .

فقام الحسين بن على فأنكر ذلك مثل عبد الرحمن وكذلك فعل عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، فكتب مروان بذلك إلى معاوية .

وكان معاوية قد كتب بذلك إلى جميع عماله فى كل الأمصار ، فوفد إليه الوفود من كل مكان ، جاءه محمد ابن عمرو بن حزم من المدينة ، والأحنف بن قيس من البصرة ، فقال ابن حزم لمعاوية :

« إن كل راع مسئول عن رعيته فانظر من تولى أمر أمة محمد » .

فسرّ بذلك معاوية واحتال عليه ليسكت حتى يرى رأى الأحنف ، ثم إنه وصل ابن حزم بالعطايا والمال وأمره أن ينصرف .

ثم أقبل على الأحنف فقال له :

قم فادخل على ابن أخيك يزيد ، فدخل عليه ، فلما خرج من عنده قال له معاوية :

كيف رأيت ابن أخيك ؟

قال الأحنف : رأيت شبابًا ونشاطًا وجلدًا ومزاحًا .

وهكذا كسب معاوية الاثنين الأحنف ومحمد بن حزم الذى ابتلع الحيلة وذهب فرحًا بالعطاء .

ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس النهرى :

إذا اجتمعت الوفود عندى ، فإنى متكلم ، فإذا سكت فكن أنت الذى تدعو إلى بيعة يزيد وتحثنى عليها .

وتكلم معاوية فى الناس وأفاض بين وعظ وتوجيه للرعية ، وتكلم بعده الضحاك بن قيس يؤيد كلامه ويطلب منه البيعة

ليزيد ، وتكلم بعده عمرو بن سعيد ، ثم يزيد بن المقنع الذى قال :
هذا أمير المؤمنين ـ وأشار إلى معاوية ـ فإن هلك فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ ، ومن أبى فهذا ، ـ فأشار إلى السيف ـ ، وكأنما حسم الموقف بهذه الكلمات .!

التفت معاوية ناحية الأحنف وكان مهيأ للإجابة فقال : يا أبا بحر ، فقال الأحنف : نخافكم إن صدقنا ، ونخاف الله إن كذبنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضى فلا تشاور فيه ، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوره الدنيا وأنت ذاهب إلى الآخرة ، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا .

وكان رد الأحنف جامعًا على ديدن معاوية لم يؤيد البيعة ولم يمنع ولكنه كان إلى الإعطاء أقرب إذ ترك الأمر فى النهاية لمعاوية لتحميل وزر ذلك أمام الله .

ورأى معاوية اجتماع الناس على إرضائه فكان يلطف بالمخالف ، ويعطى المقارب ، ويجازى المباعد حتى قاموا إليه فبايعوه على ما يريد ليزيد . بايعه أهل العراق وأهل الشام .

ولم يعد أمامه غير أرض الحجاز ، فانطلق إليها بألف فارس ، وفى الطريق حين دنا من المدينة قابله الحسين بن على رضى الله عنهما فاشتد عليه ، فقال معاوية :
مهلًا فإنى والله لست بأهل هذه المقالة .

فقال له الحسين : بلى ولشرّ منها .

لقد تلطف معه معاوية فقد كان يدرك أنه سينقل الخلافة والملك من بنى هاشم إلى الأبد إلى بنى أمية ، وهذا سيد بنى هاشم فيجب التلطف به فإن خلفه مئات الألوف يمكنهم حمل السيوف وراءه ، ثم إن معاوية تقابل مع عبد الله بن الزبير ، فاشتد عليه هو الآخر فقبل ذلك منه ، ثم عبد الرحمن بن أبى بكر وابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين ، فلما دخل معاوية إلى مقر حاكم المدينة لم يأذن لهم فى الدخول عليه ، فخرجوا من المدينة إلى مكة ومكثوا بها يتربصون ويترقبون .

أيقن معاوية أنه مشى مشوارًا طويلًا لتثبيت بيعة ابنه يزيد فقد بايعه الناس وعليه أن يشتد مع مخالفيه حتى تتحقق له البيعة كاملة ، فهدَّد الحسين ومن معه بالقتل إن لم يبايعوا ابنه ، ثم إن معاوية ذهب إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وقد بلغها أنه هدد الحسين بالقتل ، وبعد نقاش طويل معها قالت له :

فارفق بهم فإنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله .

ومكث معاوية بالمدينة فترة ثم دخل مكة وفى نيته أن يعمل بنصيحة عائشة مع الحسين وأصحابه ، ولما آن له أن يرحل جمعهم ولم يخدعوا فى نعومته معهم طوال فترة بقائه فقال بعضهم لبعض :

لا تخدعوا فيما فعل معاوية هذا لكم لحبكم له ، وما صنعه إلا لما يريد فأعدوا له جوابًا اتفقوا عليه على أن يكون المخاطب له ابن الزبير .

قال لهم معاوية :

لقد علمت سيرتى فيكم ، وصلتى لأرحامكم ، وعملى ما كان منكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون ، وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم فى شىء من ذلك .

نفس أسلوب التمنى والأخذ والعطاء ليخضع له الناس ، فقد فعل ذلك كثيرًا ونجح فى إقناع قيس بن سعد وزياد بن أبيه ، ومعاوية لين فى أسلوبه وفى خداعه ، فهو يبعد باللين ويعطى الكثير ليرضى الناس عنه وعن ابنه يزيد فيما بعد ، وها هو أمام علية القوم وأهل القوة والبأس ، فهو لا يريد لابنه شيئًا غير الخلافة وليترك الرعية لهم يفعلون بها ما يشاءون ، فكفى أن يكون خليفتهم يزيد بن معاوية ومن بعده يستمر ميراث الملك .

وطال صمت القوم عند معاوية فقال لهم :

ألا تجيبون ! كررها عدة مرات وهم صامتون ، فأقبل عبد الله بن الزبير فقال :

هات لعمرى إنك خطيبهم .

فقال ابن الزبير : نعم نخيرك بين ثلاث خصال .

ففرح معاوية وظن خيرًا فكل شىء يمكنه أن يفى به فى هذا المقام .

فقال : نعم اعرضهن .

فقال عبد الله بن الزبير :

تصنع كما صنع رسول الله ﷺ ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر .

فقال معاوية : ما صنعوا ؟

قال ابن الزبير : قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدًا فارتضى الناس أبا بكر .

فقال معاوية : ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف .

قالوا له : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قريش وليس من بنى أبيه فاستخلفه ، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه .

وفهم معاوية ما عند القوم ، أيقن أنهم رافضون البيعة لابنه وأنهم أهل حجة ومنطق يسمع له فقال لابن الزبير فى غضب :

هل عندك غير هذا ؟

فقال ابن الزبير : لا .

فاتجه معاوية إليهم وقال : فأنتم ؟ فقالوا : قولنا قوله .

وعادت الشدة لمعاوية ، إن الحلم ها هنا لا ينفع والأناة معهم مضيعة لما يريد فأغلظ لهم القول وأبدى لهم الشدة التى رآها واجبة فى هذا المقام فقال لهم :

لقد أعذر من أنذر ، وإنى قائم بمقام ، فأقسم بالله لئن رد أحدكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه .

ثم دعا صاحب حرسه فى حضرته وأمره أن يقيم على رأس كل رجل منهم رجلين ومع كل منهما سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد على معاوية كلمة لتصديق أو تكذيب ضرباه بسيفهما .

وخرج معاوية وخرجوا معه ، فارتقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين - وهو يشير إليهم - وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم رضوا وبايعوا ليزيد ، فبايعوا على اسم الله .

كمّم أفواههم بالسيف ، ووضعهم فى موضع الرضا منه ومن الناس وأخذ منهم البيعة دون أن ينطقوا ، فلا يضير معاوية أن يكسب دنياه وإن فقد شيئًا من صدقه ، إنه يسعى إلى امتلاك الدنيا وامتلاك الملك له ولابنه مما عجز عنه بنو أمية ، فلا يثنيه فى ذلك وازع ولا حجة إلا الرغبة فى الملك ، فقد كان الناس ينتظرون بيعة هؤلاء النفر من سادة العرب ، فلما أيقنوا بيعتهم بايعوا وتمت البيعة ليزيد ، ولم يعلم الناس أن بيعة أولئك الرهط إنما أخذت وعلى أعناقهم السيف وهم لم ينطقوا .

وتمت البيعة ليزيد .!

ورحل معاوية إلى المدينة ، ومنها إلى دمشق وقد أحس فى قرارة نفسه أنه أنجز ما عليه لابنه وأنه أكمل مسيرته وحقق

أمنيته وما كان أبوه يصبوا إليه ، إلا أن معاوية أراد أن يحتاط لهذا الأمر وهو يعلم أن ابنه يزيد مولع بالصيد والشراب ومداومته للقيان والإماء ، فأراد أن يمهد ويوطن فى ملكه .

وقد أحس بدنو أجله ، فعزل الولاة من الأمصار الذين يرى أنهم سيكونون عقبة كئودًا أمام طموح ابنه وعدم مبالاته بالمسئولية الملقاة على عاتقه ، فولى معاوية بدلًا منهم من أقارب يزيد ومن أهل الشام المخلصين له ليكونوا له عونًا وعضدًا عند النائبات .

★ ★ ★

(٢٣)

« الخاتمـــة »

فى عام ستين من الهجرة نعى إلى الناس موت معاوية رحمه الله ، وكان قد مرض قبل وفاته ، وكانت آخر خطبة له على المنبر التى قال فيها : « إنى كزرع محتصد ، وقد طالت إمرتى عليكم حتى مللتكم ومللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، ولن يأتيكم بعدى إلا من أنا خير منه ، كما أن من قبلى كان خيرًا منى وقد قيل :

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إنى أحببت لقاءك ، فأحبب لقائى وبارك لى فيه .

بعدها لزم الفراش ، فلما اشتد عليه المرض دعا ابنه يزيد فقال له :

« يا بنى إنى قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ، فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، وأكرم من قدم عليك منهم ، وتعهد من غاب . وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملًا فافعل ، فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام

فليكونوا بطانتك وعيبتك ، فإن رابك من عدوك شىء فانتصر بهم فإذا أصبتم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم ، وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر غير نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فأما ابن عمر فإنه رجل قد قذعته العبادة فإن لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين فهو رجل لن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه ، فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه ، فإن له رحمًا ماسة وحقًا عظيمًا وقرابة من محمد ﷺ ، وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أدركته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إربًا إربًا واحقن دماء قومك ما استطعت .

نصيحة رجل حنكته السياسة والتجارب فاستوثق بما فى نفوس الناس فكان قريبًا منهم كل القرب ومتتبعًا لأفعالهم وردودها من قريب ومن بعيد .

ومات معاوية بدمشق فى شهر رجب وقيل لثمان بقين منه بعد أن ملك الناس تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر .

مات عن خمسة وسبعين عامًا وقيل خمسة وثمانين قضى بعضها فى الإمارة وأكثرها فى الملك .

مات الرجل الذى لم تهزه العواصف ولم تنل منه القواصف وقد أوصى أهله عند الموت وصية ملك فقال لهم :

« احشوا عينى أثمدا ، وادهنوا رأسى ، فلما فعلوا أذن للناس أن يدخلوا عليه ليروه فى أحسن حال من العين والشعر والهيئة ، فدخلوا عليه فسلموا عليه قيامًا ولم يجلس منهم أحد فى حضرته ، ثم خرجوا من أمامه فقال :

وتجلّـــدى للشامتيـــن أريهـــم
أنـى لـريب الدهـر لا أتضعضع
وإذا المنيـــة أنشبت أظفارهـــا
ألفـيت كل تميمـــة لا تنفـــع

★ ★ ★

وبلغه أن أقوامًا ستفرح لموته فقال قولته المشهورة :

فـهل مـن خالـد إمـا هلكنـــا ؟
وهل للموت يا للنـاس عـــار ؟

★ ★ ★

مات الذى كان بينه وبين الناس جميعًا شعرة رفيعة لا يراها غيره ولم يقطعها أبدًا برغم ما مرّ عليك أيها القارئ من أحداث جسام وبرغم ما سمع منهم من أقذاع كالسموم .

مات رحمه الله بعد أن ترك ملكًا عظيمًا ودولة شاسعة الأطراف ، قوية البنيان ، أنشأها بالأناة والحيلة وحسن التدبير ، إلا أن نصيحته لابنه لم تغن عنه شيئًا ، فقد وهبه أبوه الملك على طبق من ذهب فحطم الطبق وباع الذهب وقضى على نفسه فى بضع سنين .

مات معاوية وما زالت سيرته تعده من أعظم الساسة المعدودين فى التاريخ حظًا وتدبرًا ودهاء .!!

★ ★ ★

المـراجع

١ ـ تاريخ الطبـرى ..... الإمام الطبـرى
٢ ـ أدب الشيعـة ..... د. طه عبد الحسيب
٣ ـ أنساب الأشراف ..... البـلاذرى
٤ ـ الروض الأنـف ..... السهيـلى

أدبيات
نبع الآداب والثقافة المعاصرة

شعرة معاوية وملك بنى أمية

عرفات القصبى قرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ..

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله .

عزيزى القارئ ..

إنه لمن دواعى سرورى أن ألتقى بك على صفحات التاريخ الإسلامى العظيم .. نستلهم منه العبرة ، ونستشعر فيه المجد والمروءة والألفة والمثل والقدوة . إنه تاريخ خير أمة أخرجت للناس .

واليوم نلتقى مع معاوية عند تقدم الزمان ، عند نهاية عصر النبوة والخلافة ، وبداية ملك وطيد . تمكن معاوية بدهائه وحنكته ، أن يؤسس هذا الملك لقومه ، ليسودوا العالم على صهوات خيولهم برايات التوحيد . فمعاوية عبقرى من عباقرة السياسة ، فلم يقطع مابينه وبين الناس برغم جفوتهم عليه وسلطته عليهم ، وهذا منتهى الدهاء .

عزيزى القارئ :

نتمنى أن ينال كتابنا رضاك ، ونطلب من المولى عز وجل أن يديم لقاءاتنا على صفحات تلك المؤسسة التى تشع بالعلم والمعرفة ، لكل الأعمار والأجيال .

والله ولى التوفيق .

المؤلف

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع